أكرم شاه

مجموعة قصصية

أكرم شاه

معيض العسيري

العبيكان
Obeikan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العسيري، معيض طالع

أكرم شاه، / معيض طالع العسيري. — الرياض، ١٤٢٨هـ

١٢٢ص، ١٤×٢١سم

ردمك: ٦ — ٢٧٢ — ٥٤ — ٩٩٦٠

١— القصص القصيرة العربية — السعودية أ. العنوان

ديوي: ٨١٣،١٩٥٣١ ١٤٢٨/٢٣٤٦

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٢٣٤٦

ردمك: ٦ — ٢٧٢ — ٥٤ — ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض — شارع العليا العام — جنوب برج المملكة

هاتف: ٢٩٣٧٥٧٤/٢٩٣٧٥٨١ فاكس: ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض — العليا — تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨/٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الذين عانوا ولم تسمع أصواتهـم . .

وإلى الذين ما زالوا يعانون بصمت . .

المحتويات

الطريق ١١
الخروج من دائرة الموت ٢١
ما زالت واقفة ٣٣
رحلة المطر ٤٣
من مذكرات الضحايا ٤٩
أذان الصبح ٧٧
أكرم شاه ٨٥

الطريق..

لمس بطرفي إصبعيه السبابة والإبهام – في لفتة تصحيحية – الجزء الأيمن من شاربه بحركة سريعة أعادت إليه انحناءته الحادة إلى الأسفل، (مشبهاً إياه في بعض المناسبات بـ "راس الجنبية!").. فعل ذلك بطريقة درامية وكأنه يسل سيفاً من غمده!..

وانتقلت يده – التي كانت تشبه في شكلها يد عامل بناء؛ وفي خفتها يد عازف قانون! – من الشارب مباشرة إلى المرآة الأمامية للسيارة لتعديلها وإعادة التوازن إلى الصورة المنعكسة فيها. وقد قام بذلك بنقرة خفيفة في ركن المرآة الأيمن، كأنها لمسة حبيب يوقظ حبيبته من غفوة قصيرة غفتها بين يديه.!

بنظرة فاحصة خبيرة نظر إلى الراكب في أقصى اليمين وقد مالت على جبهته عمامته البيضاء الملتفة حول رأسه، وانسدل منها طرف طويل استرخى على ركبتيه المنكمشتين على بعضهما، فيما انخفض رأسه نحو صدره بفعل لحظات النوم المتقطعة، وبقي ظهره مستقيماً لعدة ساعات، كانت خلالها سيارة التاكسي "الشيفروليه" تطير محلقة بين العلامات البيضاء في الإسفلت والتي تظهر حيناً وتمحي في أغلب الأحيان..

لم تبد بعد على "أبو ظافر" أي آثار للتعب، بعد أن استقرت في كبد السماء شمس صيف لاهب، وانتشرت في الأفق لفحات من الحر تدفعها سموم متعددة الجهات، تثير أتربة الطريق الحمراء لتعبر سواد الإسفلت الممتد من وقت لآخر. وكانت وحدة الطريق وطول المسافات تحفّزه أحياناً لإطلاق مواويل ذات نبرة عالية يتحدث كثير منها عن العشق؛ وقليل منها كان يزخر بالحكم الدارجة التي سرت روحها منذ أجيال عدة، متضمنة وصايا أبوية؛ تدعو للحذر من نكبات الزمان وغدره، وشيئاً عن أهمية الحفاظ على قيم الصداقة الحقيقية، بالإضافة إلى وجوب المبالغة في إكرام الضيف؛ حتى ولو أدى ذلك إلى الإخلال بالموازين المادية المتعارف عليها في الظروف العادية..

وحينما انطلق مواله في إحدى المرات دون إذن منه في فضاء السيارة المغلق قاطعه صوت شخير قادم من حنجرة منهكة في الخلف، فاكتفى بنظرة متسامحة تسمو فوق الترهات ألقاها من خلال مرآة السيارة على وجه الراكب النائم خلفه قبل أن يواصل غناءه بصوت يشبه أصوات رعاة الإبل في صحاري نجد أواخر موسم الربيع..

لم يكن ثمة ما يشير إلى أن الفراغ يمثل لديه مشكلة تستدعي التفكير، أو أن الملل لا يمكن القضاء عليه، حتى إنه أجاب على نفسه حينما لم يجد رداً على أحد أسئلته للراكب الذي يجلس خلفه، بعد أن أجاب الراكب عن سؤالين فقط من مجموع

ثمانية عشر سؤالاً ألقاها على الجميع؛ لكنه خص الراكب الذي خلفه مباشرة بنسبة كبيرة منها، إذ هو آخر الركاب التحاقاً بالقافلة الإسفلتية، وكان لا بد من التحقق من شخصيته الداخلية؛ حين لم تتح الفرصة كاملة لقائد الركب من التحقق من تقاسيم وجهه..!

السؤال الأول كان يلقيه في العادة بأكثر من لهجة، كبادرة إنسانية تهتم بشعور الآخرين على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم، بل ومعتقداتهم الدينية.. إذ كان يرى بأن "..أرض الله تتسع للناس كلهم..!"، لكنه في الرحلات الأخيرة أصبح يختصر الحروف والكلمات لتلائم الوضع اللغوي والنفسي للركاب جميعاً!. فعلى سبيل المثال، كان سؤاله الأول لعملائه وهو السؤال الذي اعتاد أن يلقيه دون مبالاة وكأنه يرمي على أحدهم بحفنة من النقود!: "منين يا ولد؟!"، قد تغير في ألفاظه، بالإضافة إلى أنه اكتسب مسحة ثقافية تتناسب وروح العصر ليصبح: "من وين الأخ؟!"..

يقولها بتودد؛ هدفه الأول التحقق من السمات العامة لأشخاص سيظلون برفقته ساعات عدة.. والغريب أنه كان يتلقى – قديماً وحديثاً – إجابات فورية بالرغم من اختلاف جنسيات الركاب وأعمارهم ووظائفهم، حتى إنه استطاع خلال رحلات العمل الشاق أن يكوّن قدرة جيدة على تخمين المهن المختلفة للركاب المنهكين من حرارة الشمس وطول الطريق. ومع أن دقة الإصابة كانت تنخفض إلى النصف في أحيان كثيرة!، إلا أن النتائج كانت

مقبولة إلى حد كبير.. وضحك مرة حينما كان عائداً إلى منزله منفرداً وقد تذكر بأنه سأل عن الرتبة العسكرية لأحد الركاب باعتباره مواطناً، وفوجئ بأنه من جنسية ليست عربية؛ يعمل في مجال الحلاقة!، فقام بتدارك الأمر حينها بالحديث عن مضايقات واشتراطات البلدية التي لا تنتهي، نظراً لكون ابن أخيه يمتلك محلين متواضعين تمارس النشاط ذاته، وقد سبق لهما أن طرقا الموضوع في أكثر من مجلس.

* * *

كان منذ مدة طويلة قد قرر إقفال باب الحديث عن الأكلات والأطعمة المختلفة التي تخص الشعوب، وذلك بعد أن ترك اثنان من الركاب السيارة غاضبين، ورفضا دعوات ملحَّة أطلقها بعض الركاب الآخرين بالإضافة لدعوته، وجهت لهما للركوب من جديد.. بل إنهم ركبوا مع سائق آخر ظهر من العدم فجأة.. وقد حدث كل ذلك بسبب سؤال صريح وُجه لهم من قبله عن إحدى أكلاتهم التي سمع بأنهم يعتمدون فيها على بعض الحيوانات المحرم أكلها، والتي لم يكونوا هم أصحابها بالفعل!، وإنما كان شعباً آخر لا يبتعد عنهم كثيراً من الناحية الجغرافية؛ ولكنهم يرتبطون معهم بملامح جسدية متشابهة تجعل من الصعب اكتشاف الفروقات قبل مرور مدة من الوقت.. وكنتيجة عامة فإن ضآلة محصلته العلمية في ذلك الوقت عن العادات والتقاليد للشعوب الآسيوية كانت سبباً رئيساً في تلك الحادثة. حيث لم تفلح تبريراته

الضاحكة في منع أحدهم من النزول من الباب الخلفي الأيمن، ثم نزول صاحبه من الباب الخلفي الأيسر للسيارة!، فيما تشتت نظراته في المرآة الأمامية بحثاً عن طريقة أكثر حداثة لمواساة الراكبين ومنع خسارته لهما، حيث لم يزيدا ضمن حركة الاحتجاج الحضاري في السيارة عن قول أحدهما وهو الأخير في النزول بصوت أنثوي:

- "إيش هذا؟؟!"

وقد ظن بأن الأمر لن يتعدى ذلك الاحتجاج "الصامت" في نظره! ولكن الآخر اتخذ خطوة عملية بمحاولته فتح الباب في أثناء سير السيارة، وصادف ذلك - لسوء الحظ - استعداده للوقوف في محطة للوقود.. وبعد نزولهما وقفا مدة على جانب الطريق في المحطة، قبل أن يسرع إليهما أحد (السواقين) ليأخذهما دون أسئلة كثيرة..

التقت عيناه وهو منهمك في رواية قصة الراكبين - التي رواها في أكثر من رحلة؛ بأكثر من طريقة - بعيني الراكب الأوسط نصف المغمضتين، فقال بسرعة قبل إكمال الجزء المتبقي من القصة:

- "السؤال فيه عيب؟!"

فنقل الراكب رأسه بإرهاق بدا مبالغاً فيه من جهة اليسار إلى جهة اليمين ماراً بعينيه على المرآة الأمامية كمشاركة كافية، ضمن جهود الإجابة عن السؤال غير المفهوم في نظره!..

وقد ظلت طريقته الفكاهية التي يروي بها قصة الراكبين؛ وأساليبه الفنية في نطق جملتهما الركيكة، مثاراً للضحك بين زملاء المهنة في بعض مقاهي الطريق، أو في أثناء الجلوس على "دكة " الموقف بانتظار اكتمال عدد الركاب. وكانت محاولاته لتكرار الجملة بأصوات تمثيلية يقترب بعضها من الحقيقة ويبتعد كثير منها عن الواقع هي بيت القصيد من القصة. حيث طلب إعادة القصة أكثر من زميل، إلا إن أشدهم ميلاً لسماعها بصيغها المتنوعة كان "بن زيد" الذي ظل يضحك في المرة الأولى دون توقف، مطلقاً العنان لدموع الضحك التي سالت من عينيه متجاوزة إطار نظارته العتيقة. ولولا تلك الدموع والضحكات الحقيقية من "بن زيد " ، والمتزجة بقرقرات الشيشة الدائرة بين الجمع، لظن "أبو ظافر" أن للأمر علاقة بكرامته! ولكنه بقي يعيد القصة بالأصوات المختلفة ذاتها نزولاً عند طلبات الزملاء. وزال شكه تماماً من احتمالات السخرية منه حين سمع أحدهم يقسم برأس أبيه الذي مات جراء سقوطه من قمة نخلة، بأنه لو كان قد اتجه لمجال التمثيل الإذاعي منذ البداية لكان يضع اليوم يده على ثروة لا يستهان بها!..

* * *

تغيرت اهتمامات "أبو ظافر" في المدة الأخيرة، فقد برز جانب الحديث عن النساء! باعتباره موضوعاً عاماً لا يغضب الكثيرين، وربما أثار موجة من النشاط تساعده في هتك أستار الماضي،

والحديث عن مغامرات مرت في زمن موغل لم يبق منه سوى الأحاديث.. لكنه يتوقف – بطبيعة الحال – حينما يكون ضمن الركاب إحدى النساء فوق سن العاشرة؛ تقديراً لها ولأسرتها المرافقة، وحفاظاً على الجو الأخلاقي العام! بل إنه ربما قطع من المنتصف موالاً بدأه لتوه حينما يتذكر بأن مع ركاب قافلته أسرة كان قد نسي وجودها مع الوقت.. مع العلم بأنه لا يستطيع مقاومة رغبته الطاغية أحياناً في طرق الموضوع ولو من بعيد؛ ضمن سياقات بريئة، يجيد الخوض فيها والخروج بسلام..!

* * *

الخروج من دائرة الموت..

كل شيء هاهنا يشعرني حقاً، بأني لم أعد حياً..!

الضوء الأصفر الخافت، ورائحة المعقم التي تتبعث من داخلي – على ما أظن! –، وتلك الستارة الملتفة كأفعى ضخمة لفظت أنفاسها للتو.. ثم ذلك السرير القاسي الذي التصقت به أعضائي، ولا أعتقد بأنني أستطيع النهوض من فوقه. وذلك بالطبع، على تقدير أنني مازلت حياً بعد..!

أستطيع تمييز صوت الرياح وهي تعبر ببطء من خلال شقوق النافذة المغلقة؛ محدثة صوتاً يشبه صوت الشياطين التي يطيب لها أن تختطف الأطفال حديثي الولادة من أحضان أمهاتهم!، وفقا لروايات جدتي التي توفيت بداء لم يكشف المعالجون عن حقيقته سوى لابنها (والدي)، ولخالي الأصغر دون غيرهما من بقية أفراد العائلة.. ويسيطر علي الآن – من جديد – شعور بأن ما حسبته ستارة في بادئ الأمر؛ ليست في الواقع سوى أفعى حقيقية فقدت حياتها منذ مدة ليست بالبعيدة، حتى إني أحس بأنفاسها تتردد؛ وبجسمها يتموج أمام عيني..!

* * *

مشكلتي الأساسية هي أنني لا أستطيع بالضبط تحديد ما إذا كنت حياً أو ميتاً..!. آخر مشهد أتذكره من عالم الحياة فوق الأرض! هو وجه اختصاصي التخدير عندما لمعت عيناه بابتسامة خصني بها وهو يقول: "..إن الغيبوبة بعد العملية قد تستمر مدة طويلة ". كما أستطيع أيضاً تذكر شخص آخر كان يقف بجانبه لم أكن أرى سوى عينيه خلف اللثام الأبيض؛ فيما كان يلبس لباساً أخضر يغطي رأسه ويتصل مع جسمه؛ ويلف يديه بقفازين أبيضين. وقد أدركت عندها بأنني أخضع للعملية التي طال تفكيري بالموافقة على إجرائها تحت ضغط الأهل والأصدقاء. والتي كان فشلها سيحرمني من إكمال مشوار الحياة الحافل؛ إلا أن نسبته ضئيلة بالمقارنة مع نسبة النجاح المتوقعة.

ولست أنكر تلك الهزة الخفيفة التي اجتاحت جميع أعضائي وأنا أستمع إلى أحد الأصدقاء العابثين وهو يؤكد: ".. بأنه سيضمن لي مأتماً يليق بمكافح مثلي برز من الظلام إلى الأضواء بسرعة مدهشة.!". واعتبرتها – آنذاك – مزحة ثقيلة؛ الهدف منها تشجيعي على اتخاذ قرار بشأن العملية، بل إني اكتفيت بتعليق قصير جاء من طرف ثالث قال بهدوء:"فال الله ولا فالك!"..

* * *

حاولت قبل هذه المرة أن أحرك قدمي فلم أستطع بتاتاً، وها أنذا أحاول الآن ولكن لا فائدة، حتى إن شعوراً مؤلماً قد تملكني لوهلة بأن قدميَّ لم تعودا جزءاً مني، وبأنني لن أستطيع

تحريكهما في أي وقت من الأوقات.. وها أنذا أحاول الآن تحريك ساعدي الأيمن، ولكن يبدو بأن النتيجة واحدة!

يعتريني الآن شعور بالخوف والرهبة؛ وقد بدا لي هذا الشعور كأحد الأدلة على أنني لم أعد حياً!.. ولكن الرهبة ذاتها التي أشعر بها تجعلني ألغي احتمال دخولي عالم الأموات، ليس لأنه مجرد وهم؛ ولكن لأنه شعور مخيف للغاية.. ولم يكن يدور بخلدي – قبل اليوم – أن ثمة حاجزاً رقيقاً بين الموت والحياة يمكن للمرء أن يعيش فيه للحظات قبل أن يتحدد مصيره بشكل نهائي، إما إلى عالم الأحياء أو إلى عالم الأموات الذين كنت أصفهم – دون أسباب مقنعة – بـ"المحرومين"!. وحتى عندما كنت أطالع كتباً لمن حسبتهم قد فهموا طبيعة الأشياء، واعتبرتهم قادرين على الإجابة عن كل أسئلتي، أجدهم الآن أجهل مني بحالتي الغامضة التي لا أجد لها تفسيراً فيما كتبوه وهم يحلّقون في أسرار الكون والحياة والأساطير الممكنة وغير الممكنة.. ولست أنكر بأن ثمة لحظات في الحياة (وما أكثرها)، يكون للموت فيها معنى أمتع من الحياة بكثير!

* * *

تناهى إلى سمعي صوت مذيع الراديو؛ يتلو نشرة إخبارية لا تمت إلى عالمي الحالي بصلة. وقد يكون ذلك الصوت حقيقة، وقد يكون من خداع ذاكرتي التي تحتفظ بالكثير من مثل تلك الأحاديث:

- " مات عن عمر يناهز الثالثة والسبعين الكاتب والشاعر الكاريبي "أمادو سيزير" في مستشفى لشبونة العام، بعد أن قصد البرتغال في رحلة علاجية قال مرافقوه إنها لن تستغرق أكثر من بضعة أيام!. والجدير بالذكر أن "سيزير" قد أثرى الساحة الأدبية اللاتينية بالكثير من القصائد التي كتبها في بدايات هذا القرن؛ إبان حروب الاستقلال التي كان أحد رموزها الشعبية. ويقول بعض معاصريه من النقاد: " إن قصائده تمثل نقطة تحول في الشعر اللاتيني الحديث...".

صمت المتحدث قليلاً ليعود صوته مصحوباً هذه المرة ببعض التشويش الذي لا يحدث سوى في عالم الواقع! وقد ساعد ذلك في نفخ روح من الأمل بالحياة بين جنبيّ؛ بغض النظر عن طبيعة الأخبار التي كان يتلوها!:

- " قالت القوات الحكومية في سريلانكا إنها قتلت اثنين من متمردي "التاميل" في أثناء محاولتهما عبور حاجز أقامه الجيش يوم أمس الأول على إحدى الطرق السريعة. وأفادت مصادر أخرى بأن....."

إنني أصارع الآن لأبقى في عالم الحياة.. لا أن أفقد الحياة.. الآن على الأقل..!

– " الأخبار الرياضية!.. فاز فريق "برشلونة" أمام منافسه "ريال مدريد" في العاصمة الإسبانية يوم أمس بهدفين مقابل لا شيء ضمن تصفيات الربع الأول من منافسات الدوري الإسباني.."

تلاشى صوت المذيع تدريجياً فيما كان يقرأ أخبار مظاهرة حاشدة في القاهرة احتجاجاً على زيادة أسعار الطحين البلدي:

".. وقد قامت قوات الأمن بتفريق المظاهرة باستخدام الهراوات وخراطيم المياه (دون ذكر الغاز المسيل للدموع الذي كنت بالرغم من الوضع الغامض الذي أعيشه الآن؛ إلا أنني كنت أتوقع أن يأتي المذيع على ذكره بحكم العادة في مثل تلك الحالات!).."، وتم اعتقال عدد كبير من المتظاهرين، بالإضافة إلى عدد من النساء والأطفال الذين كانوا يقفون على الشرفات وأسطح المنازل! لقيامهم بترديد الهتافات وإطلاق الزغاريد التي من شأنها إثارة حماس المتظاهرين، وتحريضهم للاعتداء على رجال الأمن!. كما تم إلقاء القبض على متضامنين مع الشبان المتظاهرين من بعض كبار السن والعجزة الذين كانوا يجلسون على المقاهي بشارع محمد علي! مروراً بمقاهي الحسين حتى ميدان التحرير!.."

* * *

عندما انقطع صوت المذيع تماماً اتضحت لي فجأة – تحت الضوء الخافت – على الجدار المواجه لي لوحة فنية بدا لي غريباً أني لم أرها سوى الآن.. تدل حوافها الكبيرة المذهبة والبارزة إلى الأمام على أنها رسمت بطريقة فناني عصر النهضة المولعين

بالواقعية المتزجة بسريالية محلقة كما في هذه اللوحة، والتي بدت فيها فتاة فرنسية ذات جمال ارستقراطي، تحتضن وجهها ابتسامة شرقية تنم عن دلال أوروبي مفرط من ذاك الذي لا يوجد غالباً سوى لدى "كونتيسات" البلاط الإمبراطوري.. كانت الفتاة تعتمر قبعة من القش المزخرف بعناية لها لون النحاس، وقد شغلت جانب القبعة الأيسر وردة حمراء؛ صَنعت مع لون ثوبها الفستقي المائل إلى الحمرة تناسقاً بدا لي مقصوداً، (وربما كان ذلك بفعل الضوء الأصفر الخابي للغرفة).. كانت الفتاة تجلس على كرسي مذهب من الخشب الهندي، له مقبضان من المرمر، وتمسك بيديها مجموعة من زهور الأورغندي المجففة ذات ألوان متعددة. وتظهر خلف الفتاة مجموعة من الطيور البنفسجية والصفراء، بالإضافة إلى طاحونة هوائية بعيدة من تلك التي كانت تستخدم في الريف الفرنسي بعد الحرب الكبرى. وقد كتب اسم الفنان أسفل اللوحة بالإنجليزية بخط متموج يقترب لونه من البرتقالي الداكن: "سباليزي بوسويه". وقد بدا لي الاسم أول الأمر يحمل طاقة موسيقية، لكن هذا الشعور بهت لديَّ بدافع الانتصار للإنسانية! بعد أن تذكرت بأن أحد أكبر محترفي القتل في أوروبا – تحت ذرائع مختلفة – يحمل ذات الاسم! وهو من أكثر الذين مروا على السجون الفرنسية خلال العقود الثلاثة الأخيرة غرابة.

* * *

لا أنكر بأن عواصف الموت قد هبت علي قبل هذه المرة كثيراً.. لكنها كانت عبارة عن مواقف لا تلبث أن تنتهي، بينما في هذه المرة سأرحل مطلقاً.. وهذا شيء مفزع!.

أحاول الآن بشيء من الصعوبة أن أحرك رأسي قليلاً إلى الجانب الأيسر؛ ولو لم أستطع فإن هذا يعني بأنني قد مت منذ وقت ليس بالقصير! ولكنني شعرت بثقل رأسي الشديد وهو يتحرك ببطء، وقفزت إلى مخيلتي في تلك الأثناء صورة لصديق عزيز كنت كثيراً ما أدعوه بـ"المتسول"! نسبة لكونه يمارس عادة التلصص على بعض أخباري من خلال المجلات المثيرة أو الصحف، ثم يفاجئني بها وعيناه تلمعان ببريق النصر..! وكان يصفني بعد جدال طويل وتبريرات من قبلي لبعض سلوكياتي (التي تسهم في صنعها الظروف إلى حد كبير) بأنني: " ثعلب! أجيد القفز على السلالم..!".

في استدارتي إلى الجهة الأخرى استطعت وسط الضوء الشحيح تمييز الباب الخشبي والمقبض الفضي اللامع، بل إنني تمكنت من قراءة العبارة المكتوبة على الباب بألوان فسفورية ساطعة؛ تشبه تلك المستخدمة في الأعياد، كانت بالفرنسية وتعني: "إن ثمة من يتمنى لي الشفاء العاجل.."

أعتقد بأنني سبق وأن رأيت هذه الطاولة الممتدة إلى يساري.. وثمة شيء ما يلمع – أيضاً – في هذا الضوء الأصفر القاتل، أظنه جهاز التلفاز بشاشته الفضية الكبيرة متدلياً من الجدار؛ وقد

انعكست على جزء صغير من شاشته السوداء المطفأة صورة باقة من الزهور ظهرت فيما بعد في الزاوية اليمنى للغرفة..

لو لم أكن في عالم الحياة لما كانت هذه الأشياء موجودة بالطبع، ولحل محلها أشياء أخرى قد تكون أقل إثارة للبهجة!.. على اليسار أيضاً أستطيع تمييز مصباح الإضاءة؛ لكنه كان مطفأ.. واستيقظ في داخلي شعور متذبذب بالمسرة لم يلبث أن زال؛ وحل محله قلق متوجس من الحياة الجديدة..!.

* * *

بدأت استرد شجاعتي وأثبت لنفسي بأنني مازلت على قيد الحياة، فحاولت بوجل تذكر بعض الأحداث الأخيرة في حياتي حيث كان ذلك يشعرني ببعض الارتياح المؤقت.. لا بأس!، حتى الموتى يتذكرون.. لكنني أشعر بالثقة الآن على أي حال..

أدرت رأسي ببطء شديد إلى الجانب الآخر لأعود كما كنت، فانطلقت في ركني الأيسر وخزة مفاجئة لها تأثير طعنة يائسة في ليل الصحراء الموحش.. وأجبرني الألم الذي شعرت به على الهدوء التام ريثما تلاشى كلياً، مخلفاً تحذيرات لا نهاية لها.. وبدأت تتسلل إلى ذاكراتي في تلك الأثناء بعض الوجوه والأسماء، مع أنني لا أستطيع الربط بينها..

بعض تلك الوجوه عندما أتذكرها كان يعتريني شعور غامض لا أستطيع التعبير عنه، إلا أنه شعور جميل.. وكنت أشعر

بانقباض سريع عند تذكر بعضها الآخر.. وأحسست بشعور دافئ عندما تذكرت وجه أمي القادم من خلف سحب الذاكرة العليلة، ولكنه سرعان ما كان يغيب ويتوارى ليعود مرة أخرى.. ولا أستطيع تحديد عدد المرات التي استجديت فيها ذاكرتي لأراه من جديد، ولكن مجرد محاولاتي كانت تشعرني ببعض الأمل..

لم لا أتكلم على سبيل التجربة؟!.. ولو أنني نجحت في ذلك فسأقتنع بأنني الآن (حي تماماً!).. وحدث خلال ذلك تطور جديد؛ فقد تذكرت اسمي الآن وها أنذا أحاول النطق به (را..)، ولكني عندما حاولت تحريك لساني تحركت معه في صدري ورأسي أجزاء كثيرة لم أكن أتوقع حركتها!، وعاودني الألم – في جزئي العلوي هذه المرة –، حتى إن حرف الراء خرج ثقيلاً؛ ولم أستطع إكمال الاسم.. لكنني تذكرته بكل الأحوال..

أحسست بنبضات قلبي وبالهواء الذي أتنفسه يدخل إلى صدري ويخرج منه.. وبدأت أشعر ببقية أطرافي دافئة، وأعتقد الآن بأنني قد تحسنت بعض الشيء فعدت إلى التفكير مرة أخرى وقد استحال لون الغرفة إلى زرقة خافتة في هذا الوقت المبكر من اليوم؛ بفعل لون زجاج النافذة التي اتضحت حدودها من خلف الستارة الأفعوانية. وتبدت لي الأشياء واضحة.. أيام المعاناة مع المرض، وقرار العملية الجراحية، والأصدقاء، والمنزل، والعمل... حتى إنه قد خطرت لي فكرة مراجعة الحسابات المالية والمصروفات

للشركة خلال العام الماضي!، ولمعت في ذهني فجأة إمكانية معالجة الخسائر الطفيفة بأساليب جديدة..!

* * *

عندما أطلت الشمس بعد لحظات في فضاء الغرفة سيطرت عليَّ حيوية غامرة، وودت لو أنني أستطيع النهوض!.. وفي تلك اللحظة فتح باب الغرفة بهدوء، ودخلت فتاة شقراء تحمل كوباً من الماء في يدها اليمنى وتلبس قميصاً أبيض..

– "صباح الخير!". قالتها بإنجليزية ممزوجة بلكنة الجنوب الفرنسي، ومدت الكلمة الأخيرة على طريقة معلمي الصفوف الأولى في بداية العام الدراسي.. فعلت ذلك وهي تنحني لتسحب ملفاً للأوراق علق في طرف السرير عند قدمي، وسلمت إليَّ بيد بيضاء صغيرة ورقة استطعت بسرعة أن أقرأ الكلمات التي بداخلها، وكانت مكتوبة بخط أسود مائل للأعلى: "خروج! – السبت ٢١ – فبراير – ١٩٩٠"..

* * *

مازلت واقفة..

وقفت مستترة بسياج من أشجار الطريق الممتدة بمحاذاة سور الكليات الجامعية؛ في المكان الذي اتفقا عليه ليلة البارحة.. وكانت أشعة شمس الظهيرة تنعكس بقوة على زجاج السيارات الواقفة والمتحركة، ومازالت هي تنتظر متلفتة بين حين وآخر – بحذر غريزي – فيما حولها، لعلها تعثر عليه قادماً بين السيارات المندفعة، أو لعلها تراه بين الواقفين في انتظار بناتهم وأخواتهم وزوجاتهم..

كان الصوت المتحشرج لحارس الجامعة يرتفع بين فينة وأخرى من الميكرفون مصحوباً بصفير حاد يتردد صداه في المباني المجاورة عندما ينادي باسم عائلة إحدى الطالبات، وربما سمعته منادياً بأسماء بعض عائلات صديقاتها أو معارفها في كليتها أو في إحدى الكليات الأخرى ضمن الحرم الجامعي، مما يعني أن أحد ذويها أو ربما السائق قد حضر لاصطحابها.

عندما ارتفع الصوت باسم عائلة صديقتها "رحاب" خفق قلبها، وتذكرت زجاجة العطر الصغيرة التي استعارتها منها اليوم في أثناء محاضرة الأدب العربي. وكانت "رحاب" تخرج الزجاجة وقد

تجمدت على شفتيها ابتسامة شاحبة، وعيناها تنظران بخبث في الوجه المتورد بحمرة الخوف من الموعد العاطفي الأول..

كانت قد أخبرت والدتها بأن لديها اليوم درساً عملياً في مختبر الكيمياء، وأنها قد لا تنتهي منه قبل الخامسة مساءً.. وعندما بدأت حرارة الشمس تذيب "المكياج" الذي وضعته على أنحاء متفرقة من وجهها في دورة المياه قبل خروجها؛ وشعرت بقطرات من العرق تتسلل على جبينها تحت غطاء الوجه والعباءة، عند ذاك تمنت لو أنها وجدته بانتظارها حسب الموعد والمكان المتفق عليهما..

فتحت حقيبة يدها وأخرجت منديلاً فاحت منه رائحة عطر انتشر لبرهة في جوها بالرغم من حرارة الشمس وعوادم السيارات.. وحينما رأت جهاز الهاتف الجوال ملقى في الحقيبة لا تحوي شاشته أي مكالمة (لم يُرد عليها)، ألحّت عليها من جديد فكرة الاتصال به مرة أخرى، لعلها تجد جواله مفتوحاً هذه المرة.. وعرض عليها – وهي تحاول الاتصال – سائق سيارة أجرة أن يأخذها؛ من خلال صوت منبه أصدره من السيارة بشكل آلي وهو ينظر إليها في المرآة الأمامية، ولكنها لم تحرك ساكناً..

* * *

استعادت في مخيلتها شريط ذكريات قصيراً عن علاقتهما التي لم تكمل بعد شهرها الأول؛ وكيف أنها سمعت صوته لأول مرة في المستشفى المركزي حين ذهبت لزيارة أختها "أحلام" بعد

ولادتها.. واسترجعت بسرعة طريقة التقائهما وتعرفه عليها، وشعورها الذي امتزج حينها بالخوف، والشوق، والرغبة.. وكيف اختلطت كل المشاعر في لحظة واحدة، ثم لم تدر بعد المكالمة الأولى إلا وهي تشعر نحوه بهذا الشعور الذي يكاد ينسيها حرارة الشمس، بل والعالم من حولها..!

قطع عليها حبل الذكريات صوت حاد صغير يبدو أنه لطفل أصر على استلاب الميكرفون من يد الحارس لينادي على أخته بنفسه؛ في بادرة طفولية لا تغضب كثيراً الحارس الهرم الذي كان يعرف أغلب فتيات الجامعة من طريقة لبسهن ومشيتهن، حتى إنه قد ينادي باسم عائلة الفتاة لمجرد رؤيته لأحد أقاربها أو للسائق يقف بالسيارة.. وتمنت حينها لو أن موعد اللقاء لم يكن في ذلك المكان المكشوف؛ تحت شمس الصيف الحارقة..

فيما كانت تحدق في الجهة المقابلة – ظناً منها بأنها الجهة التي يفترض أن يأتي منها " وليد " – ارتطمت سيارة بأخرى ارتطاماً خفيفاً من جهة الخلف، ونزل السائقان ينظران إلى الأضرار الطفيفة، ثم تبادلا إشارتين تدلان على المسامحة، وعادا إلى سيارتيهما مواصلين السير في الطريق الذي بدأ يزدحم بفعل الإشارة الحمراء التي أضاءت في مقدمة الشارع..

سرى في كيانها تلك اللحظة شعور مؤلم غطى لوهلة على أصوات الرغبة واللهفة في داخلها، وتذكرت صورة قديمة لوالدها كانت أمها تضعها في صالة المنزل قبل أن يأمر أحد

أخوالها – بسبب التزامه الديني المفاجئ – بإزالتها، فاكتفت أمها بتعليقها في غرفتها الخاصة..

– "لم أجلس في حضنه يوماً..!"

قالت ذلك لصديقة عمرها "أمل"، يوم أن سألتها الأخيرة بعفوية بعد حصة التعبير منذ سنين:" إن كانت تشعر بالشوق لوالدها المتوفى..".

وعندما سألت أمها وهي في الصف الثالث قائلة:

– " هل صحيح أن من يموت يذهب إلى الجنة؟! "

تذكرت بأن والدتها قد أجابتها بعينين تلمعان بالدموع قائلة:

– " إن شاء الله! "..

وكان أصغر أخوالها "عبد المحسن" قد حكى لها عندما كان في المرحلة المتوسطة، وكانت هي في الصف الثاني الابتدائي قصة حادث السير الأليم الذي تعرض له والدها قبل مدة طويلة عندما كان عائداً من زيارة والده المريض في "حفر الباطن"، وكيف أن والدتها بقيت لا تذوق الطعام والشراب مدة أسبوع، حتى زارها أقارب والدها، و"حلف" عليها الجدّ المريض بأن تأكل وتشرب مع استمرارها في "الحداد"؛ لأن هذا قضاء وقدر لا حيلة للإنسان فيه..

* * *

لفت انتباهها سيارة "فورد" بيضاء، لم تتمكن من رؤية من بداخلها، كانت تقف في الجهة المقابلة من الشارع مضيئة أنوار إشارات التنبيه الصفراء، فتطلعت إلى السيارة بحذر على أمل أن يكون هو.. ولكن سائق السيارة فتح الزجاج الأمامي المواجه له إلى النصف؛ وأشار إليها بالركوب. وعندما تبين لها بأنه لم يكن "وليد"، أدارت رأسها إلى الجهة الأخرى، وفتحت بعصبية حقيبة يدها بحثاً عن جوالها، مما جعل سائق السيارة يبتعد متلاشياً في زحام الطريق..

كان اتصالها به ليلة البارحة قد استمر من الثانية ليلاً وحتى الرابعة والنصف صباحاً في مكالمة متواصلة، بثا بعضهما في أثنائها لواعج الحب وآلام الفراق، وأسمعها الكثير من الأغنيات. ورسما معاً ملامح المستقبل الزاخر بالأشواق الطاغية؛ وبالعشق الذي سيملأ عش الزوجية المرتقب.. وأهداها في أثناء المكالمة – من ألحانه – أغان خصها بها دون غيرها، تصف عذاباته وسهاد ليله. بل إنه قدم لها شيئاً من أشعاره التي قام بكتابتها؛ أوحى له بأبياتها جمالها الأخاذ، من خلال مجموعة الصور التي أرسلتها له عن طريق البريد الإلكتروني..

أيقنت بأن "المكياج" قد ذاب الآن تحت حرارة الشمس، وقررت أن شكلها الحالي لم يعد مناسباً لإكمال الموعد، بعد أن أحست بتبلل يديها بعرق الصيف اللزج. وتطلعت إلى باب الجامعة

من بعيد فرأته شبه خال، ولم يعد الصوت المبحوح لحارس الجامعة يظهر سوى في لحظات متباعدة..

* * *

فجأة، وحين ضغطت على أزرار الهاتف بحركة آلية، وفي داخلها يقين بأن هذا الاتصال سيكون كغيره من الاتصالات السابقة التي كان فيها الهاتف يرن دون أن يرفعه، أو أنه مغلق و(لا يمكن الاتصال به الآن).. انطلق من الجهة الأخرى للجوال صوت واهن تبدو عليه آثار النوم الطويل، وصاح بتودد:

– "هلا! "، فشعرت بغير قليل من خيبة الأمل، ولكنها أكملت معاتبة:

– " وينك؟!"، فاعتذر لها بأن النوم قد غلبه بعد حديث البارحة الطويل، وأقسم بأنه لا يزال يحبها:

– "لحظات؛ وأكون بين يديك..!"

قالها وهو يقفل الهاتف، فيما سبحت هي في أودية من الأحاسيس.. إحساس بالعشق، وآخر بالازدراء، وثالث بالخطيئة التي توشك أن تحتل في حياتها معناً ملموساً.. لكن الأشواق والرغبات المبهمة كانت أقوى من كل مشاعرها الأخرى، فانتظرت مجيئه ملتمسة له العذر في تأخره. فربما كان خطأها الذي جعلها ترهقه بمكالمات ليلية تمنعه من الاستعداد للموعد الذي رتبا له خلال الأسابيع الماضية..

في تلك اللحظة عبرت مسرعة من أمامها مباشرة شاحنة صغيرة لنقل الألبان، نثرت عجلاتها على الرصيف بعضاً من مياه سقي الأشجار الذي كان قد فاض في الحوض المقابل وتسرب إلى جهتها. وعندما انحنت قليلاً لترى مدى تأثر حذائها وملابسها برذاذ الماء، لمحت عند قدميها – من مكانها المنزوي بين شجرتين – بعض زهور دوار الشمس الصفراء؛ وزهور البنفسج عديمة الرائحة وهي في أوج تفتحها في تلك الظهيرة، وكان بعضها محطماً قد عبثت به أقدام السائرين بين الأعشاب الخضراء..

لا تدري كم من الوقت مرَّ وهي تتأمل الزهور والشارع وأبواق العربات والمحلات المقفلة، وتتجاذبها مشاعر شتى من الشوق، والغضب، والخوف، ثم الحزن الذي داهمها فجأة وهي ترى في إحدى الزهرات المتفتحة صورة أبيها الراحل ينظر إلى المجهول، متخيلة إياه ينزف وحيداً في شتاء الطريق داخل سيارته المحطمة، وقد كانت تلك هي صورته الأبدية في خيالها، والتي ظل "عبدالمحسن" يكرسها لديها؛ ظناً منه بأن تلك هي الطريقة الأصدق للتعاطف مع الفقيد..

ورأت صورة أمها وهي تعقد ضفائرها عندما كانت في سن مبكرة؛ وتأمرها بالاحتشام في أثناء سيرها إلى المدرسة أو العودة منها.. وفي تلك اللحظة رن جرس هاتفها الجوال، وعندما فتحت الخط قال من الطرف الآخر صوت ضاحك:

– " انظري إلى يسارك.!"

كان "وليد " يركب سيارة بيضاء تشبه سيارة الـ"فورد" التي شاهدتها قبل ما يزيد على نصف ساعة، وتقف في مكانها ذاته، وقد أضاء أنوار إشارات التنبيه الصفراء، وأخرج يده من الزجاج الأماميّ نصف المفتوح؛ مشيراً لها بيد معتذرة لتركب في المقعد المجاور له..

وقفت قليلاً وتطلعت إليه، ثم نظرت باتجاه الجانب الآخر من الشارع، وقامت بتعديل عباءتها على رأسها. وانتظرت حتى خلا الشارع من السيارات العابرة، ثم اتجهت بهدوء إلى حيث يجلس حارس الجامعة الذي كان يهفهف عن وجهه الحر بمروحة من القش..!

* * *

رحلة المطر..

انعطفت سيارتهم الصغيرة مباشرة قبل السياج الحديدي بمسافة قريبة؛ وكاد (الصدام) الأمامي للسيارة أن يلامس السياج بشكل قد يؤدي لكارثة.. وتحرك في السيارة كل شيء؛ حتى شماغ "عايض" من فوق رأسه، لكنه استرجعه إلى وضعه السابق وهو يمسك "الدركسون " بيده اليسرى ويقول بذهول:

– " أعوذ بالله من النوم...!"

لم ينتبه من الركاب النيام لصوت الموت الذي مرَّ بجوارهم للتو سوى ابن عمه "سالم" الراقد على المقعد الأمامي للسيارة متكوماً لجهة الباب ومغطيا نفسه "بشرشف" أبيض؛ كان أبوه "الشيخ عبيد" قد استخدمه في عمرته الأخيرة في أثناء طوافه بالكعبة. وقد حرصت أمه على إلحاق الشرشف ضمن "العفش" بعد أن سمعت عن برد الرياض الجاف.. وحين استيقظ بعد زوال الخطر الداهم وجد نفسه متعلقاً بالمسكة البلاستيكية فوق النافذة المغلقة.. فالتفت بعينين أضناهما السهر والدخان، وسأل بصوت خالطه النوم والرعب:

– "خير؟؟!"

فاستمر "عايض" في العبث بشماغه هرباً من السؤال؛ في حين مرت بجوارهم شاحنة اهتزت لها السيارة في الطريق المزدوج، وانتشرت في الداخل روائح عادم الشاحنة المحترق فاضطر "سالم" لفتح نافذته وهو يعدل من جلسته؛ ثم عادت يده لتمسك بالمقبض البلاستيكي المتدلي من طول الاستخدام في أعلى النافذة..

خيم سكون جديد قطعه صوت سباب مكتوم صادر من الخلف من طرف واحد؛ تبادل خلاله السائق ورفيقه في ظلام السيارة نظرات ضاحكة، ووجدها "عايض" فرصة لاختتام جو الرهبة، فمد إلى "سالم" سيجارة يطلب إشعالها.. في حين ختم "سلمان" القابع في مؤخرة السيارة معركة السباب بكلمة واحدة اعتبرها – وهو نائم – كلمة الفصل في مثل تلك الصراعات الأسرية:

– "ملعونة..!"

قالها بصوت نائم مفعم بانفعال متموج بالحلم والغيظ، ولكنها أدت مفعول السحر في الجسد الهامد وكأنها حشرة خرجت من عنق زجاجة!؛ فقد عاد إلى "سلمان" سكونه وعادت إلى أسماع "عايض" و"سالم" أصوات الشخير الرتيبة القادمة من الخلف..

رفع "عايض" من وتيرة السرعة فيما أشار "سالم" بسيجارته المضيئة في العتمة إلى ابن خالته الممدد في الخلف؛ وقال وكأنه يشير إلى وسيلة توضيحية:

- " في العام الفائت عندما كان في السنة الأولى من الجامعة لم تكن عيناه تدمعان إلا عندما يرى أول لوحة مكتوب عليها: (الرياض ١٠٥٠ كم!)، ويظل يتحدث عن أخواته اللاتي يقاربنه في السن، ويحكي عن صراعاته اللانهائية معهن، ويشتكي من وقوف أمه وأبيه مع "البنات" حتى ولو كان الحق معه.. ".

وأضاف "سالم" وقد قذفت موجة ريح صغيرة بدفقة من مياه المطر على زجاج النافذة:

- " ومرة اختنق صوته وهو يتحدث عن شتم والده له لأنه يضع عقله بعقول أخواته "الضعيفات".. ويستمر في حكاياته وشكواه لنصف الطريق! قبل أن يتعب ويستسلم للنوم.. ".

عندما بدأت قطرات المطر تضرب الزجاج الأمامي للسيارة بشكل كثيف أشعل "عايض" مصباح النور العالي وشغل ماسحات المياه الأمامية بسرعة أكبر؛ فظهر من البعد نور سيارة قادم حجب عن عينيه ملامح الطريق.. لكنه لم يمنع نفسه – بفعل الجو المشبع بروائح المطر – من تلقي أطياف البيت والقرية؛ وصورة أمه تدعو له بالقبول وصورة جدّه يهز في وجهه المسبحة ويقول:

- "لا تفشلنا يا أخوالك..!"

ولاح في زحام الصور وجهها مبتسماً باكياً، وهدأت سرعة السيارة بشكل غير ملحوظ مع اشتداد هطول المطر حتى غطى على أصوات الشخير والهمهمات القادمة من جوف السيارة..

امتزج الليل بالعشق.. وومضت في أقصى الملاءة السوداء نجمة فضية امتد ضياؤها حتى أعماق الجسد المتألق تحت غناء حبات المطر.. وراحت أطياف "مريم" تزور ذاكرة "عايض" وتنعشها، وتوقظ في عتمة الليل وهذا السجن الحديدي المتحرك كل مكامن العشق في زوايا روحه..

امتدت يد عاشقة دون وعي إلى مسجل السيارة، وضغطت على مفتاح التشغيل فانطلق صوت حنون يغني "لطفلة تحت المطر.."، لكنه ارتطم – دون توقع – بصوت شتائم جديدة صادرة من الخلف بلغة إنجليزية هذه المرة!، فأقفل "سالم" المسجل معترفاً بخطئه حين جعل "سلمان" يتجه لقسم اللغة الإنجليزية!، وأنه كان من الأفضل لو أنه وجهه لتخصص آخر!..

كانت في تلك الأثناء كل كلمات العشق الخفيضة عبر الهاتف قد تسللت إلى ذاكرة "عايض" التي أنهكها حفظ المعادلات الكيميائية؛ وأرقام الوزن الذري لكل عنصر من عناصر الجدول الدوري؛ ومحاضرات ما بعد الظهر؛ وأسئلة الاختبارات المعقدة، والفقر والليل والطريق..

استلت يد سالم بعض سجائر من (بكت) الدخان، فيما قبضت أصابع "عايض" على مؤشر الصوت في مسجل السيارة ليرفع تحت ضربات المطر على السيارة صوتاً يغني:

– ".. قصت ضفايرها ودريت..! ".

من مذكرات الضحايا ..

(١)

عندما أمرنا الجنود بالوقوف في صف واحد بمحاذاة بعضنا امتثلنا بسرعة.. وبعد أن توقف القائد في مقابل الصف اقترب مني، وحجب رأسه الكبير قرص الشمس عن عيني فاتضحت ملامح وجهه العريض بشكل أدق، ثم بدأ بتفحصنا كأنه يبحث عن شيء ما..!

نظر باتجاهي وهو يغمض إحدى عينيه متفادياً دخاناً كثيفاً من سيجارة حديثة أشعلها للتو، وثبت عينه الأخرى عليَّ طويلاً. وانتظر حتى انزاح أثر الدخان من أمام وجهه ثم أشار إليَّ بالخروج من الصف والوقوف جانباً.. وحينذاك سمعت صوت بندقية تتحرك من مكانها خلفي ففهمت أن أحد الجنود الواقفين خلفنا يستحثني لتنفيذ الأمر بسرعة.. وبعد أن وقفت بعيداً عن الصف بعض الشيء أشار إلى صبي آخر، ثم صوب القائد نظره باتجاه " كاساي " وأشار إليه بعد تردد وهو يلقي بعقب سيجارته إلى الأرض، وأمره بالوقوف إلى جانبي أنا والصبي الآخر..

لم يكن "محمد كاساي" في ذلك الوقت مؤهلاً لخوض الحرب، كما همس بهذا أحد الجنود – فيما بعد – ونحن في عربة النقل..

والـداي – بـالطبع – لم يكونـا يـستطيعان الاعـتراض، ولم يكن ذلك بإمكـان أي مـن أهـالي قريتنـا الـصغيرة القابعـة في ذلـك الطرف من الغابة الـكثيفة..

* * *

(٢)

عندما تحركت بنا السيارة باتجاه الجبال لم نكن نعلم إلى أي جهة سوف يأخذوننا، وكل ما عرفناه وقتها من خلال الأحاديث القصيرة والمقتضبة بين الجنود أنهم يأخذوننا للقتال..

قبل شهر من الآن حضر إلى القرية جنود آخرون واعتقلوا ستة من الأطفال وشابين كان من ضمنهم صديقي الحميم "موتيسا" الذي لم أره منذ ذلك الحين وحتى اليوم. وعندما اعترضت والدة أحد الأطفال أشهر جندي السلاح في وجهها فلاذت بالصمت والبكاء..

في العربة سمعت صوت أمي تتحدث إلى جارتنا التي تزوجت حديثاً تسألها إن كان زوجها قد عاد من رحلة الصيد الطويلة!، وحين التفتُّ مذعوراً إلى مصدر الصوت رأيت في ظلام العربة أحد الجنود وقد أسند رأسه على صدره فيما كان يصدر أصواتاً متقطعة في أثناء نومه..

* * *

(٣)

كانت العربة تسير ببطء مثقلة بالجنود بالإضافة لنا أنا و"إدريس" و"كاساي".. كان الاثنان يبكيان في أثناء ابتعادنا عن أكواخ القرية، أما أنا فقد حاولت أن أبقى صامتاً طوال الوقت، وفهمت من بعض الحديث في العربة أننا سننضم لأحد المعسكرات حول العاصمة؛ والتابعة لحركة "جيش القديسين" المعارضة للحكومة، وأننا – قبل ذلك – سنخضع لتدريبات مكثفة على الحرب..

في ذلك الحين لم نكن نعلم شيئاً عن طبيعة القتال الذي يجري حول العاصمة، وكل ما قاله الجندي الملاصق لي مجيباً عن سؤالي وهو يثبت عينيه في سقف العربة: "إننا سنكون ضمن فرقة المتطوعين!"..

وشجعت "إدريس" إجابة الجندي على طرح سؤاله، فسمعت صوته مختنقاً يسأل في الظلام:

– " متى نعود إلى القرية؟؟!"

فأجاب جندي يمسك بعمود في المنتصف:

– " عندما تنتهي الحرب..!"

قالها بطريقة بطيئة وحاسمة تمنع أي سؤال آخر بهذا الشأن..

(٤)

كي نقترب من العاصمة " كمبالا " يجب أن نجتاز جبال "رونزوري" الشاهقة، وربما وصلنا إلى أعلى مكان في العالم، قمة "كلمنجارو" التي تغطيها السحب طوال العام، والتي كانت أمي تقول لي "..إنها سقف الدنيا "..

في السيارة كان الجميع صامتين إلا من بعض الأحاديث المقتضبة، وبعض الأصوات المكتومة التي تنطلق دون تفكير بعد اصطدامنا بحجر في الطريق، أو بعد انعطاف مفاجئ ترتج له العربة، وقد نرتطم ببعضنا أحيانا بفعل الطريق الوعر الذي كنا نسير فيه..

وكنت أعرف أسماء بعض المناطق المحيطة بالجبال وبعض الحكايات حولها، فلقد قص والدي علي مرات عديدة أسطورة التمساح الذي كان يخرج من البحيرة العظيمة قبل مواسم الفيضان، وكي يتقي سكان المناطق المجاورة غضبه فقد كانوا يلقون إليه كل عام بواحدة من أجمل الفتيات هدية موسمية له!، وبعدها يأذن التمساح لمياه النهر بالفيضان وسقيا البذور الجديدة.. وتقول الأسطورة: إن موسم ذلك العام صادف مرور أحد الشبان الشجعان من إحدى القرى الواقعة على سفوح الجبال في زيارة لأخته المريضة في قرية بالقرب من البحيرة، وبعد أيام من زيارته عشق

إحدى فتيات المنطقة، ولكن تلك الفتاة اختيرت بعد مدة قصيرة لتكون هدية التمساح العظيم في ذلك العام.. وحاول الشاب أن يهرب بها بعيداً؛ ولكنه فشل حين اعترضه بعض سكان القرية وقاموا بحبس الفتاة، ثم بدؤوا بالإعداد للاحتفالات المصاحبة لذلك الحدث الكبير..

حين رأى الشاب ذلك حزن كثيراً وتألم؛ ولكنه أصر على إنقاذ الفتاة ومواجهة التمساح العظيم بمساعدة بعض أصدقائه؛ مضحياً بحياته في ذلك السبيل، حيث قام باستدراج الوحش الهائل إلى اليابسة ثم انقض عليه من بين أشجار الغابة برمحه الطويل، وقضى عليه إلى الأبد.. وبعدها تزوج بالفتاة وأصبح ملِكاً على قرى تلك المنطقة جميعاً..

كانت تلك الأسطورة تثير الحماس لدى جميع الشبان والصغار على حد سواء، بل إن ذلك الشاب الذي خلّص العالم من الشرور أصبح بطلاً تتناقل قصة بطولته الأجيال، وترويها الأمهات للصغار، والآباء لأبنائهم. وكنت واحداً ممن تأسرني تلك الأسطورة حتى إنني لم أكن أملُّ سماعها بالرغم من تكرارها في كثير من المناسبات وبأشكال عديدة..

* * *

(٥)

بدأت السيارة تميل ميلاناً شديداً وهي تسلك طريقاً ملتوياً داخل الجبال قبل أن نبدأ بالصعود إلى الأعلى وكأننا نمضي بشكل عمودي!. وكان بعض الجنود يصدرون أصواتاً ساخطة من حين لآخر بسبب الارتجاج الشديد، فيما بقيت ملصقاً ظهري بجسم العربة؛ ومتشبثاً بالعوارض الحديدية خلفي بكلتا يديّ..

كنت ألاحظ من خلال الفتحة المضيئة في مؤخرة السيارة أشجار الموز والكاكاو العالية. ومن بين أوراق الأشجار الكثيفة كنت أراقب الشمس وهي في طريقها إلى الاختفاء، وكنت أسمع صوت " إدريس" و "كاساي" وهما ينتحبان، ولم يكن الجنود يعبؤون ببكائهما؛ إلا أن أحدهم ركل "إدريس" ذات مرة وبعدها ساد الصمت..!

الطريق وعرة والسماء بدأت تمطر.. ويبدو أن سائق العربة يعرف طريقه جيداً بين الجبال؛ بالإضافة إلى مهارته في القيادة.. ومن خلال النافذة الزجاجية الصغيرة كنت أراقبه وهو يقبض على المقود بشيء من العنف. وكان يتذمر من حين لآخر ضارباً بيده اليسرى على النافذة الزجاجية المغلقة، وبخاصة عندما ترتطم العجلات بإحدى الصخور الكبيرة في أثناء السير..

كنت طفلاً حينها ولم يكن منظر العربات العسكرية مألوفاً في منطقتنا الواقعة على أطراف الأدغال؛ والتي تحيط بها سلسلة الجبال العالية من جهات عدة..

بعدما ساد الظلام أخذت العربة تسير في طريق مستقيم يبدو أنه معبّد تتخلله بعض الحفر، وكنت ألاحظ – على ضوء السيارة – بعض الإطارات المحترقة والملقاة على الطريق..

حاولت النوم ولم أستطع لأنني كنت أشعر بالبرد، وقد نام "كاساي" ثم " إدريس " ونام اثنان من الجنود وبقيت مستيقظا مع ثلاثة منهم نتبادل النظرات وسط الظلام الدامس، وكان أحدهم يدخن ثم يلقي بأعقاب السجائر تحت قدميه دون مبالاة.. واستمرت العربة تسير في هذا الطريق لوقت طويل قبل أن تعود إلى السير في طريق ضيق متعرج. وبين الحين والآخر كنت أسمع صوت السياط في الخارج! الذي لم يكن سوى صوت جسم العربة وهي تصطدم بالأغصان وأوراق الشجر..

* * *

(٦)

فجأة هدَّأ السائق من سرعة العربة قبل أن يتوقف تماماً بمحاذاة خيمة كبيرة؛ علِّق فوق بابها مصباحٌ يكاد يضيء منطقة صغيرة حول المدخل.. نزل السائق ثم عاد بعد قليل وطلب من الجميع النزول، فدفع أحد الجنود "كاساي" إلى الخارج، وقبض جندي آخر بيده على قميص "إدريس" من جهة كمه الأيمن وهما ينزلان من العربة، وكنت قد قفزت من العربة وأصبحت في الخارج مع أحد الجنود.. ولم يكن يبدو على الشابين أنهما يعيان ما يدور حولهما حيث لم يبد أي منهما رغبة في المقاومة، ولعل ذلك كان بفعل مدة النوم التي قضياها في أثناء سيرنا بين الجبال حيث امتدت لثلاث ساعات تقريبا..

في أعلى الخيمة عُلِّق مصباحٌ يكفي لرؤية بعض الوجوه.. تحت ضوئه الباهت وفيما كنت أراقب الجنود وقد تمددوا في أنحاء متفرقة من الخيمة دخل رجل لا يبدو من هيئته أنه جندي؛ يحمل في يده اليمنى مصباحاً وفي اليسرى كتاباً متوسط الحجم.. واتضح لي تحت ضوء المصباح أنه ليس من أهل المنطقة، وعندما اقترب الضوء من وجهه بدت بشرته البيضاء وكذلك لحيته، وكان يغطي رأسه فلم أتمكن من رؤية شعره.. بدت عيناه تلمعان في الظلام وهو يتأمل الجنود ويعدهم، بينما شفتاه تتحركان.. بعدها تحدث معه السائق

بلغة لم أفهمها وكانا يشيران في أثناء حديثهما إلى جهة الشرق فاعتقدت أنهما يقصدان العاصمة..

غطّ الطفلان والجنود في نوم عميق، وبقيت وحدي أتظاهر بالنوم، فيما اختفى الرجل الأبيض. وبعد مدة قصيرة سمعت صوت العربة وهي تمضي مبتعدة عن الخيمة..

* * *

(٧)

والدتي تحب الحديث عن الطبيعة، عن الأرض، ومواسم الحصاد، وتعرف أنواع المحاصيل، وتحب الحديث عن أفراد القرية؛ وعن أصول العائلة؛ وتسرف في كلامها عن أجدادي الأوائل الذين كانت لهم حكايات تحب أن ترويها بين الحين والآخر.. وكانت تقول: " إن جدتي الكبرى تنحدر من أحد فروع قبيلة "الأشولي"، وقد اشتراها جدي في أثناء حرب طويلة بين قبيلتين من قبائل الشمال امتدت لسنوات؛ حيث نزح الكثير من سكان القرى في ذلك الوقت خوفاً من نار الحرب الدائرة هناك ".

".. أما جدي لوالدي فقد عمل مدة في رحلات طويلة لبيع التبغ في المناطق الشرقية والجنوبية قبل أن يداهمه الموت على يد لصوص القوافل عند مفترق الطرق المؤدية إلى الحدود مع تنزانيا "..

كانت تريني أدوات الحرب، وتشجعني على استخدام الحربة ذات العنق الطويل التي كثيراً ما شاهدت "إدريس" ذاهباً لصيد البقر الوحشي مع أبيه وهو يحملها، وعندما يراني من بعيد كان يحييني بهز الحربة رافعاً إياها إلى الأعلى..

لم أكن أدرك معنى للحرب، ولم أكن أعرف هدفها على وجه التحديد، وكثيراً ما كنت أتساءل:" لماذا يأخذوننا في تلك

السن لكي نخوض الحروب..". وقد قال لي "كاساي" فيما بعد: " إنه يفضل الموت في الغابة بين أيدي الأسود! على الموت في حروب كهذه".. وكنت مثله، فربما قتلني شخص وهو لا يعرفني!، وربما قتلت صبياً من أبناء وطني دون ذنب.. وسألت نفسي للحظة: "لماذا لم يفعل أبي شيئاً حين أخذوني؟!.."

ضحكت في سري بالرغم من كل الظروف المحيطة، فقد كان "إدريس" وهو نائم يغني..!، وتلفتُّ في ظلام الخيمة لأتأكد أن أحداً لم يلاحظني وأنا أردد بصوت خفيض – دون أن أشعر – أغنية الماء" التي كنا نغنيها سوياً في مناسبات عدة:

تنفسي أيتها الحقول..
وازدحمي أيتها الغزلان عند شاطئ البحيرة..
وحين تصبح المياه كالمرآة..
تنطلق الرماح كالأمطار.!
وفوق هذه الأغصان نحمل الوعول..

❖ ❖ ❖

ابتهجي أيتها الغزلان..
فلن نصيد اليوم..
لأننا هناك قبل ساعتين كنا..!

* * *

(٨)

استيقظت بعدما شعرت بحرارة الشمس، إذ لم تكن الخيمة تغطي الجميع تماماً، وخاصة بعد أن رفعت في وقت مبكر بعض جوانبها في أثناء نومنا..كان الصبيان قد استيقظا؛ وبدا "إدريس" أهدأ من البارحة؛ في حين راح "كاساي" يفرك عينيه وهو يتأمل الكتل الصخرية الكبيرة التي حولنا متنقلاً ببصره بينها وبين الجبال الشاهقة في الأفق الغربي، حيث بدت الطريق التي سلكناها بالأمس شبه واضحة بين الجبال. وقد بقينا نتأملها مدهوشين من بعدها ومن الحجم الضئيل لشاحنات كانت تعبر في تلك الأثناء..

عادت العربة تحمل بعض المؤن.. ولأول مرة أبصر العجوز الأبيض بشكل واضح، فلقد كان ملفوفاً في ملاءة من الظلام ليلة البارحة؛ لذا لم أستطع تبين ملامحه بدقة، وقد لاحظت بأن الجميع كانوا ينفذون أوامره وكأنها واجبات حتمية، ويستمعون لتعليماته دون اعتراض..

حين سألت أبي ذات مرة ونحن قافلان من رحلة قصيرة لجمع الثمار:

– " من أين يأتي البيضُ؟"

قلت ذلك وأنا أنظر إلى امرأة بيضاء تغتسل عند مسقط شلال بين الأدغال..

فقال أبي:

– "إنهم يأتون من البحر..!"

ولما سألته عن البحر قال:

– " إنه يشبه بحيرة "فكتوريا"، لكنه أكبر منها بكثير..

وعندما سألته: لماذا يأتون إلى أرضنا الفقيرة؟! قال:

– " إنهم يفعلون ذلك من أجل شراء الناس..!"

نبت في داخلي حينها اعتقاد بأن تلك الإجابة هي إحدى طرق والدي للتملص من ثرثرتي العالية، فواصلت مستسلماً لتيار من الرغبة في الحديث:

– " حسناً! وماذا يفعلون بالناس بعد أن يشتروهم؟!"

فقال دون اهتمام:

– " إنهم يبيعونهم..!"

وتخيلت في تلك السن أن والدي كان يقصد أشياء أخرى غير المعاني التي أفهمها مباشرة.. لكنه قال بعد مدة صمت تخللها صوت قطيع من الأفيال المستثارة قادماً من بعيد:

– " لهذا هم أغنياء يأكلون ما يريدون ولا يشربون إلا المياه النظيفة!".

(٩)

أفقت من ذكرياتي على وقع أقدام "الأب توماس" وهو يقترب مني فجلست مرتبكاً، ولكني تظاهرت بالشجاعة؛ في الوقت الذي كان يمعن النظر في وجهي وجسمي..

– "ما اسمك؟!"

بدا لي حين سألني وكأني أعرفه منذ زمن، فشعرت بغير قليل من الثقة وأجبت:

– "حسين موانجا!"

سألني مرة أخرى بلهجته السابقة نفسها وهو يفرك نملة صغيرة ضلت طريقها وينظر في راحة يده نصف المفتوحة:

– "من أين أحضروكم؟!"

ارتسمت أمام عيني مساحات شاسعة من الأراضي الخضراء والغابات المطرة وأنا أقول:

– "من بنيورو!"..

مد في تلك اللحظة "كاساي" رجله بعصبية فاصطدمت بأحد جوانب الخيمة، وانتظر "توماس" لبرهة قبل أن يسألني وهو ينظر باتجاه مدخل الخيمة:

– "هل أنت خائف من الحرب..؟!"

لا أذكر الآن بم أجبته على وجه التحديد، لكني أتذكر – بعد أن قلت له كلاماً عن والدي وعن الصيد في الغابة – أني قلت وأنا أنظر في عينيه:

– ".. إنني لست جباناً!"..

وابتسم ابتسامة غامضة دون أن يفتح فمه، ولمعت عيناه، وكنت أنظر إلى عينيه بدهشة فقد كانتا زرقاوين. والتفت ينظر إلى الصبيين اللذين كانا قد بدأا بالاقتراب شيئاً فشيئاً ليسمعا الحوار، وقد أراد العجوز أن يسألهما أيضاً لكن أحد الجنود وقف خارج مدخل الخيمة تماماً وقال وجسمه يمنع ضوء الشمس من الدخول:

– "سيدي! الطعام جاهز"..

* * *

(١٠)

أكل الجنود ورؤوسهم منخفضة إلى مستوى أكتافهم دون أن يحدثوا أي صوت سوى أصوات الطقطقة الخفيفة عند ملامسة الأواني النحاسية العتيقة لبعضها على المائدة الصغيرة. وربما كان للعصبية التي انتابت بعضهم عند رؤية الطعام دور في ذلك.. في تلك الأثناء كنا أنا و"إدريس" نتساءل في سكون عن المصير المجهول، وقد لاحظته شارد النظرات على غير عادته.. أما "كاساي " فقد أكل قليلاً من الطعام الموضوع أمامه فقط، وكان يمضغه بغير اكتراث.. وبعد أن فرغنا من تناول الطعام جمعنا "الأب توماس " خارج الخيمة؛ وقال وهو يشير إليّ أنا و"إدريس":

– " ستذهبون غداً مع الجنود إلى معسكر التدريب لتتمكنوا من الانضمام للمليشيات في أقرب وقت..!"

فاجأت كلماته عقلي الصغير، واعترضت مخيلتي صورة لي وأنا أحمل بندقية وأسير ضمن مجموعة من الجنود، نتخفى بين الأشجار؛ أو نركب عربة مثل تلك التي جئنا فيها إلى هنا ونتجه لخوض حرب حقيقية.. واتسعت عينا "إدريس" وهو يحدق دون هدف في وجه "الأب توماس"، وقرأت في وجهه الكثير من الرعب الذي اهتزت له شفتاه وهو يحاول قول شيء ولا يستطيع..

وواصل "توماس" وهو يوجه حديثه إلى قائد الجنود ويشير إلى "كاساي" الذي وقف بعيداً بعض الشيء بانتظار مصيره أن يتقرر:

– " الصغير ستأخذه إلى ملجأ الإرسالية قبل أن يحل الظلام.."

وأضاف بصوت أخفض من السابق:

– " ولا تنس أن توصي بإبعاده عن الأولاد الذين يتعرف عليهم هناك..!"

ولم تكن مفاجأتنا أقل من "الأب توماس " حين قال "كاساي" بصوت يشبه زمجرة كلب صغير:

– " لكني أريد العودة إلى أبي وأمي..!"

فافتعل "توماس" – خلافاً لتوقعاتنا – ابتسامته تلك وهو يقول:

– " ليس هذا وقت المزاح أيها الصبي..!"

فأجابه الطفل وقد امتلأت عيناه فجأة بالدموع:

– " لكن والديّ بحاجة لي..!"

ضرب عند ذاك قائد المجموعة بقدمه على الأرض؛ ثم نظر في ساعة يده بحركة تنم عن الانزعاج من كلام الصبي، لكن "توماس" قال وهو ينظر باتجاه العربة:

– "الروح المقدسة بحاجة إليك أيضاً..!"

صمت "كاساي" مطرقاً إلى الأرض وسمعته يهمس لنفسه:

– " تباً لكل الأرواح المتوحشة..!"

* * *

(١١)

في المعسكر شاهدت ثلاثة من أبناء قريتنا الذين أخذوهم قبل مدة؛ والذين لم أكن على صلة وثيقة بهم.. ابتسموا لنا مندهشين عندما رأونا، وعانقوا "إدريس" بحرارة، فسألتهم إن كانوا يعرفون شيئاً عن صديقي "موتيسا"؛ لكن أحداً منهم لم يكن يعرف شيئاً عن مصيره، إلا أن أحد الشبان أكد لي بأنه قابله في الملجأ قبل أشهر ثم لم يره بعد ذلك.. وقد قضيت بقية اليوم أرقب حديثهم على أمل أن أفهم بعضاً من حقيقة وجودنا في هذا المكان..

كان المعسكر عبارة عن أربع خيام كبيرة، إحداها كانت لنوم الصبية والشبان، والأخرى للجنود، وتم إعداد الثالثة لتكون المطبخ، وأما الخيمة الرابعة فلم أدخلها لكنني سمعت بأن فيها مكتباً يجلس عليه قائد المعسكر، وعندما يأتي "توماس" إلى هنا فإنه يجتمع بالجنود بداخلها، ويقول "إدريس" إن الصبيان أخبروه بأن "توماس" يحتسي الشراب أحياناً مع الجنود في تلك الخيمة..

كانت الخيام تقع في الجزء الأيمن من المعسكر، وفي مقابلها امتد ميدان كبير يشبه الساحات التي كنا نقيم فيها مسابقات الجري في القرية، وقد أحيط المعسكر من جميع جوانبه بجدار مرتفع بُني من الأحجار الكبيرة المتلاصقة، وفوق الجدار وضعت أسلاك شائكة، وكانت إحدى الجهات من الأسلاك مغطاة

بقشور الموز ومخلفات القرود، وفي أسفل تلك الجهة كان ثمة فتحة صغيرة تستغلها تلك الحيوانات في العبور إلى خيمة المطبخ لسرقة الطعام، وكثيراً ما يتم ضبط أحد القرود داخل الخيمة. وقد قيل لي بأن عدداً منها قتل لهذا السبب، وعلق بعضها على جدار المعسكر لتراها القرود الأخرى!.. وكانت الأسلحة تخبأ في الخيمة الأخيرة ويقوم عليها حارس ليلي ينام أحياناً عند مدخلها..

عندما حضر السيد "توماس" في مساء ذلك اليوم أمر بعزلنا عن بقية الأولاد عدا أوقات الطعام التي كنا نستغلها في تبادل الأحاديث الهامسة المتقطعة. وفي إحدى المرات لم يحضر أحد الشبان فقد كان مصاباً، ويبدو أن حالته سيئة للغاية حيث لم يتقن إغلاق البندقية بعد رحلة تدريب داخل الغابة. وفي طريق العودة سقط في حفرة في أثناء اجتيازه تلة قريبة من المعسكر؛ وانطلقت من بندقيته رصاصة أودت بإحدى رئتيه. وقد أخبرني "كاساي" بعد مدة طويلة بأنه مات متأثراً بإصابته تلك.

عند العشاء حاولت الجلوس إلى جانب أصغر الصبية في المجموعة، وسألته وأنا أنظر أمامي في طبق من الخضراوات المطبوخة مع قليل من لحم البقر الوحشي:

– "هل يطعمونكم في المعسكر بشكل جيد؟"

فقال وهو يغطي فمه بقطعة يابسة من الخبز:

– " قد تحرم من الطعام مدة يوم كامل إن أنت خالفت الأوامر.!"

طرق الجندي المكلف بالحراسة طرقات متتابعة على المائدة علامة على وجوب التزام الصمت؛ فأكملت الطعام وأنا أفكر بأن أسأل الصبي إن كانوا سيعيدوننا إلى ذوينا بعد انتهاء الحرب، لكن الطاهي – الذي توطدت علاقتي به لاحقاً – وضع في تلك اللحظة على الطاولة الخشبية المنصوبة مؤقتاً في الساحة قدراً امتلأ إلى نصفه بحساء اللحم. وقد أخبرني بأنه من منطقة "الدفلاي" في الشمال الغربي، وأنه يعمل في هذا المعسكر منذ أشهر بعد أن كان يعمل حارساً للمؤن في إحدى الإرساليات في "ممباسا"، وكان يحدثني بحماس عن جده الذي جاء من السودان ضمن مجموعة من الجنود واستقر في تلك المنطقة قبل سنين طويلة..

أجابني الصبي ونحن في طريقنا للخيمة: ".. بأنه لا يعلم إن كانت الحرب ستنتهي أم لا..!".

* * *

(١٢)

بعد شهر من التدريب اليومي، عدا أيام الآحاد التي كنا نخلد فيها للراحة واللعب مع القرود المتسللة بحثاً عن الطعام، وكان قد سمح لنا بالاختلاط ببقية الشبان والصبية، شعرت بالمرض والإعياء، وداهمتني آلام متفرقة في جسدي، ولم أستطع حمل بندقيتي في حصة التدريب ذلك اليوم، وبالرغم من أن أحد الجنود حاول إيقافي بالقوة إلا أنني كنت أسقط في كل مرة؛ مما دعا قائد المجموعة إلى إعطائي فرصة للراحة إلى أن تتحسن حالتي، وحين راح الجميع في نوم عميق بعد يوم طويل وشاق؛ كنت وحدي ممدداً على الفراش أتطلع إلى النجوم من خلال نافذة صغيرة في إحدى جوانب الخيمة..

سمعت صوت أمي قادماً من جهة غير معلومة، وقبل أن أتلفت بحثاً عنها رأيتها تدخل الخيمة وهي تغني أغنية الحصاد!، واستطعت في الظلام أن أرى بجانبها "ماري" تلك الفتاة الرائعة الجمال التي طالما تحدثت معها عندما كانت أمها تغيب لجلب الماء من النهر. بل إني مرة أمسكت بيدها في أحد الأعراس وسرنا في موكب العرس؛ تحت وابل من أصوات الطبول وأهازيج النساء وهن يرمين الزهور الحمراء والصفراء الزاهية على العروس وهي تمشي

بجانب زوجها الذي حمل بيده اليسرى عصا طويلة علق في أعلاها رأس غزال ذبح لتوه تعبيراً عن كرمه وحبه لزوجته الجديدة..

كانت أمي والفتاة تغنيان وتقتربان مني، وكنت أتساءل في داخلي عن سر البرودة التي تسري في عظامي.. وقلت وأنا أنظر إلى "ماري":

– " متى تنتهي الحرب يا أمي؟!"

فصفقت بيديها وازداد غناؤها حزنا وشحوباً..

وأخيراً تكلمت الفتاة وهي تمسك بيدها اليمنى إحدى ضفيرتيها وتنظر إلى وجه أمي، وقالت:

– " الآن، يجب أن نذهب يا أماه..!"

ترددت قليلاً قبل أن أهمس برجاء:

– " أمي!، إني مريض..!"

فلمعت في ظلام الخيمة عينا أمي وهي تنحني علي، ووضعت يدها على جبهتي وعيناها ما تزال تومضان..

* * *

(١٣)

أفقت على إثر ركلة قوية أحسست بها في جانبي، وشعرت بأنفاس "إدريس" الدافئة وهو يهمس مقرباً وجهه من أذني:

– "هيا، قم! سنهرب الآن..!"

شعرت بالذهول، وسرى في أنحاء جسمي نشاط جديد سرعان ما تحول إلى رعب دفين سببته فكرة الهرب.. وعادت إلى ذاكرتي في تلك اللحظة كلمات "الأب توماس" قبل شهر من الآن: " عندما يفكر أحدكم في الهرب فإن الموت جزاؤه العادل!".

وقد كانت فكرة الهرب من المعسكر تراودني بشكل مستمر إلا أنني كنت أستبعدها لشعوري بأنها تنطوي على خطر كبير.. ولا أعلم حتى اليوم لم اختارني "إدريس" لأكون معه في مهمة كهذه مع أنه يعرف تماماً بقية الشبان..

فيما عدا الجندي المكلف بالحراسة – والذي كنا نسمع صوت غنائه بعيداً وراء خيمة الأسلحة – كان جميع الجنود نائمين بعد يوم شاق تخلله جمع الأخشاب ووضعها داخل مستودع المعسكر..

لم يمهلني "إدريس" كثيراً لأفكر فقد أمرني وهو يحمل في يده حربة كان قد صنعها لنفسه في الصباح بعيداً عن أعين

الجنود، بأن أزحف من خلال الجزء الأسفل للخيمة وأن أواصل الزحف حتى أصل إلى السور المحيط بالمعسكر دون أن أحدث أي صوت.. وهكذا فعلت. وعندما اصطدم رأسي بالجدار سمعت نباح كلب يعوي بعيداً فخفضت رأسي حتى لامس وجهي الأرض وتصلبت أعضائي..

لبثت على حالي تلك مدة قصيرة قبل أن أسمع صوت احتكاك جسم يزحف بالقرب مني، وعندما حاذاني قال "إدريس" بصوت يشبه صوت الرياح:

– " سنخرج من فتحة القرود..!"

كنت أعرف مكانها بالتحديد ولهذا لم أسأله، بل تركته يسير أمامي وهو جالس وتبعته دون صوت.. وعندما وصلنا إلى الفتحة في الجدار رمى بالحربة من خلالها إلى الخارج فأحدثت صوتاً بفعل ارتطامها بصخرة ناتئة في الأسفل، ثم حشر جسمه الطويل داخل الجدار، وبعد أن أصبح خارج السور تماماً ناداني قائلاً:

– " هيا، فلتخرج!"

دخلت بجانبي الأيسر أولاً وأنا أنظر باتجاه الخيام، وقبل أن أعبر شق الجدار بالكلية سمعت صوت الحارس الليلي يصيح وهو يتجه إلى خيمة الجنود:

– "لقد هربوا..!"

واصلت عبوري حتى أصبحنا في الخارج، وشاهدنا ونحن نركض بعيداً أنوار المعسكر وقد أُضيئت، وسمعنا أصوات الجنود من بعيد وهم يصيحون مفزوعين..

دخلنا في أدغال قريبة واختبأنا بين الأشجار قبل أن ننطلق في الاتجاه الذي اعتقدنا أنه يؤدي إلى الطريق المتعرج بين الجبال ونحن نجري بكل ما أوتينا من قوة، وسمعنا في الأفق أصوات طلقات نارية تقترب منا لكننا واصلنا الركض باتجاه غابات الموز الكثيفة، وكان "إدريس" يتقدمني بخفة ورشاقة..

قبل أن نصل إلى الغابة دوى قريباً من أذني صوت طلقة من بندقية وأحسست بحرارة تكوي جانب وجهي فاعتقدت أني قد أصبت ولكني سمعت صوت صرخة مكتومة أطلقها "إدريس"؛ فتوقفت عن الركض وانحنيت عليه أبحث عن مكان إصابته لكنه أمسك بيدي ووضع الحربة في كفي، وقبل أن أتكلم رأيت عينيه تنظران إلى القمر..

أخذت الحربة وانطلقت إلى الغابة القريبة وأنا أسمع أصوات الجنود تقترب، لكنني كنت قد ابتعدت عن المكان مختفياً داخل أسوار الليل الحالك..

* * *

أذان الصبح..

اغتسلت وجنتاه بسنا الفجر الأول فتسرب بصيص من النور البعيد خلال محاجر العينين المظلمتين منذ أمد.. وامتدت السماء مطرزة بنجوم مشعة كانت تضيء بهجة الليل وتغازل السائرين.. وارتد سلطان الليل حين بدت في الأفق الشرقي غلالة فجر يولد لتوه وسط رياح هائمة تأتي من الشرق مرة، ومن الجنوب مرة، ومن الشمال مرة.. تحكي قصصاً عن وحشة الليل؛ وأخبار العاشقين؛ وأنين الجائعين.. وربما وصفت أعيناً حزانى تسفح دموعاً ملتاعة لا تجف إلا حين تصيح رايات الفجر..

* * *

ارتفعت يده السمراء في مساحة من الظلام؛ تجفف آثار وضوء نديّ زعم الليل أنه يطهر بعضاً من آثامه! وأنه يمحو عن المخطئين شيئاً من أخطائهم.. وتعالى مع ارتفاع يده صوت نحاسيّ، له رنّة كأنها خرير المياه العذبة من أفواه السواقي.. قدم من ردهات الحنين ممزوجاً بود خجول؛ وُلِدَ طفلاً وتعاظم في فناء روحه حتى صار عشقاً، لكنه ظل طفولياً يخجل من البوح بأسراره وخباياه حتى لذاته!:

قالت "خديجة السالمية" وهي تضع على رأسه يداً صغيرة؛ شعر بها وكأنها يد قطة منزلية! وأحس بعينيها تنظران في عينيه:

– ".. أعمى! لكنك تفهم – يا ولد "رثعة" – أحسن من أهل السوق كلهم..!"

كان إطراء عاشت كلماته في زاوية من زوايا جسده المعتم دهراً من الزمان؛ كمجموعة من زهور أقحوان نبتت في مسيل واد مجدب، وبقيت مقاومة عوامل الزمان والمكان!..

ولربما غاب عن خياله حينها أن قد يكون ذلك نوعاً من الشفقة بعد عاصفة هائلة من ضحك الصبيان انهمرت عليه حين سقط في اختبار أجراه له أحدهم؛ فيما كان يحمل دلواً من الماء الحار أرسلته أمه به لجارة لهم نفساء، إذ داهمه السؤال فجأة من جهة غير معلومة؛ عن لون الثور الكبير في حظيرة الشيخ "سرحان"!، فأجاب دون ترو – بفعل البخار الحار المتصاعد من الدلو – : بأن أمه ذكرت له بأنه " أشهب، مثل خشبة المسحاة..! "

* * *

تساءلت – بعد ذلك بقليل – نجمة وهي تودع ملاءة الليل:

– " ترى! هل تفنى الكلمات كما يفنى الناس..؟!"

وأيهما المستحق لوجود خالد؟.. وماذا لو غاب الناس وعاشت الكلمات في خلود أبدي..!".

وسألت نجمة أخرى وهي ترسل نظرة عتاب في الأفق السرمدي:

– " ترى..! أين يكمن مرفأ الشوق في لجة الحزن؟!"

وتطلعت إلى جهة أخرى من الأفق المجهول وأضافت:

– "وترى! كيف تعبر الكلمات حجب الزمان والمكان، ثم تستقر في ثنايا الروح؟! وكيف تسكن أصوات الشوق والألم الغابرة في ركن واحد من أركان الذاكرة العتيقة..؟!"

❖ ❖ ❖

لطالما عشق الأصوات.. أصوات الآهات، وصيحات الفرح، وأغاني الرعاة، وبكاء الأطفال، وهمسات الليل، والهواء والماء، وغناء الأشجار؛ وعويل الأغصان.. وفي أجوائه الرطبة ثارت من ربيع العمر ذكريات معشبة، وعبق الأفق بريح الكادي والبخور، وسمع من بعيد نباح كلاب تحرس البيوت، وعوت ذئاب في غابات بعيدة؛ لا يمكن سماعها إلا فوق مستوى الإدراك..

قالت "حليمة الجبلية" وهي تسكب الحليب لجارتها في غضارة من الصفيح:

– "إنه يشبه جده لأبيه..".

وقالت "راضية" بائعة البرك في سوق السبت؛ وهي تنزل عن حمارة أهديت لها في ختان أخيها:

– "... إن صورته هي ذاتها صورة أمه لو كان معه (خرصان❖)..!".

وتمنى حينها – من مقرّه فوق زلفة البيت الحجري الصغير – أن لو استأذن من ظلام عينيه لوهلةٍ؛ يقيم فيها ميزان الصدق بين صورتين متعاكستين؛ لا يدري إلى أيهما تنتمي روحه..

❖ ❖ ❖

هبت من الشام هبوب رخيَّة فقابلتها نسائم ناعمة من اليمن.. وأطلت من الشرق ريح صبا رقيقة؛ فهملت من جبال تهامة هفهفات ندية حملت في أحضانها شوقاً غابراً، ولعاعات عشق بارح الفؤاد منذ دهر وانطوى في حجب السنين؛ ضمن قافلة من المشاعر كانت غضة في ذات يوم..

أطل البدر المكتمل من بين سحابتين؛ وقد تبدى في غلالة من غيوم؛ لبست حوافه القريبة منها وشياً من الفضة، وتزينت أطرافه البعيدة منها بألوان قرمزية متوهجة..

وبعد أن أسكت البدر – برفق – نجمة فتية قاطعته بقولها لسرب نجوم جفلت من مرآه: "بأنه أجمل الكائنات!"، سأل بودٍّ قديم:

– " كيف يموت العاشقون؟!"

❖ الخرصان: حلق الأذن.

ارتج الأفق السامر، وكأن سؤال القمر قد حط من جسد الزمان ستين عاماً أو يزيد؛ فاخترق فضاءَه صوت أمه القادم من أفياء الليل تقول له:

- "لماذا لا نبحث لك عن بنت الحلال، تعينها وتعينك.. إني أريد أن أرى ذريتك في حياتي قبل أن أموت!".

وهزت الذكرى الجسد القائم في جنح الليل؛ لأن الأم ماتت ولم تر شيئاً من الذرية الموعودة لا قبل موتها ولا بعده!.

* * *

كان العشق الصغير الذي نبتت كلماته في مسيل القلب قد كبر وكبر واستولى على كل شيء، حتى غدا هو كل شيء.. ولم يعد ظلام عينيه اللتين ولدتا بلا ضياء عائقاً بين المُشاهَد والملموس، أو بين الحقيقة والوصف.. بل إن عالماً داخلياً متكاملاً قد نشأ بأشخاصه وعباراته، وقيمه ومبادئه!.. ولم تفلح محاولات بعضهم العابرة في إرغام الجسد المغلق من الخارج على قبول الاندماج في عاطفة جديدة، أو حتى على التفكير في عشق آخر سوى عشق صاحبة الكلمات التي استحالت عالماً نابضاً لا يبصره الآخرون..!

رحلت إلى بلاد الغربة "خديجة السالمية" في ذات مساء صاخب بعد أن تزوجت من ابن العم، فأقام عالمه الخفي مأتماً استمر حتى الصباح!.. واستمرت جوانحه ترعى زهرات الأقحوان وتتعهدها بماء

الذكريات، فنبت منها سيل من الأشواق لا يعرف السكون إلا مع تباشير الفجر الوليد..

* * *

شق صمت الليل صوت متزايد لصرير إطارات سيارة طائشة، كان يشبه صيحات رعب أطلقها شيطان أبكم تلقى شهاباً من النار؛ فاجأه في أثناء جولة رقص لم تكتمل.. اهتزت لها نوافذ البيوت وجفون النائمين، وارتطمت قطعة الحديد التائهة بالجسد الواقف على قارعة الظلمة يستجدي مساحات العشق والشوق؛ ويسبح من عالم إلى عالم، ومن أفق إلى آخر..

نثرت بائعة البرك في الأفق شيئاً من روائح المسك والكادي، ومدت "السالمية" يدها إلى الجبهة السمراء الدامية تمسح عنها تراب الطريق، وتضع بدلاً منه شيئاً من الزعفران والعنبر.. وطافت بالجسد الممدد في أديم الليل كلمات استحالت زهوراً برية ذات ألوان بهية رائعة.. وغابت نجوم وبدت أخرى مشيعة إياه نحو عالمه الجديد..

بقي البدر وحيداً، صامتاً، تحجبه أنواء وغلالات من سحب؛ ليعود من جديد، يمعن النظر في الجسد المسجى تحته بضياء الفجر، علـه يجيب عن سؤاله الكبير.. عن العشق.. والموت.. و"كيف يموت العاشقون..".

* * *

أكرم شاه..

(١)

انحدرت على وجنتيه دمعتان مسرعتان كأنهما تتسابقان نحو الفناء!.. سارتا بين تجاعيد وجهه الآسيوي الداكن لتختفي في لحيته البيضاء؛ عدا شعرات سوداء معدودة.. كانتا في انحدارهما السريع تشبهان نهر "جهلم" الكبير، الذي يبعد حوالي عشرين كيلو متراً عن بلدة "ريناواري" القديمة التي يمر بها نهر "ريناواري" العريق في قلب كشمير التي سماها الفاتحون والغزاة: " جنة الله في أرضه!"..

كان "محمد سليم" خبازاً في تلك البلدة الصغيرة.. كشميري الأصل والملامح، باكستاني المولد والطفولة، فبشرته الداكنة إلى حد ما تضفي عليه سمات الكشميريين المميزة.. وقد نزحت أسرته إلى هنا منذ زمن بعيد. وتفيد رواية سمعها من والده وحكاها لجاره "ميرزا أكبر" أكثر من مرة، ولعدد من زوار المخبز في مناسبات متفرقة؛ بأنه ينحدر – في أصله البعيد – من عائلة هندية عريقة، استوطنت كشمير قبل ثلاثة قرون على الأقل، ثم هاجر أفراد منها إلى مدينة "بيشاور" نتيجة لبعض الخلافات العائلية وتحت تأثير الخوف من الثأر. ثم عاد أغلبهم من جديد إلى وطنهم الأم "كشمير". وكان هو وأخوه الأصغر "نور الدين" ممن ولدوا خلال

السنوات الأخيرة لعائلته في "بيشاور"، قبل أن يقرر والدهم أن يعود إلى موطنه..

كان النهر يتجه من الشرق إلى الغرب بشكل متعرج، ماراً بحقول الأرز. وكانت المصبات الصغيرة القادمة من الجبال ترفده بعد نزول الأمطار.. وقد بدا النهر هادئاً في جريانه؛ ترتفع على ضفتيه أشجار الجوز العالية..

كل شيء ها هنا كان يشعر بالروعة والجمال عدا شيئين: صوت الغربان الصاخب في الأفق ودمعتي "سليم"..

* * *

(٢)

تنبه الرجل العجوز بعد أن شعر بالبلل يغطي وجهه في مقابل تيار الهواء البارد، ومسح وجهه بجزء من ردائه الطويل الذي غالباً ما كان يلبسه، وخصوصاً عند زيارته للنهر، ثم استدار ووقف بشيء من الصعوبة، إذ لم يعد لديه من القوة ما يجعله يقف بسرعته المعهودة، وعليه أن يعيش كما كان يعيش قرناؤه في تلك السن المتقدمة، حيث ودع كثير منهم الحياة منذ مدة طويلة..

رمق العجوز النهر بنظرة تحمل وداً قديماً، فهو الشيء الوحيد الذي لم يتغير مذ كان شاباً، وفيما كان يلبس حذاءه الصلب التفت بنظرة حانية إلى الجبال المحيطة؛ قبل أن يسير عائداً إلى منزله في الجزء الجنوبي الشرقي من البلدة القديمة..

كانت الشمس تؤذن بالمغيب، تماماً – في نظره – كأي شيء موجود.. " وكل ما هنالك أن الشمس تعود في الغد، أما الأشياء الأخرى فهي عندما تختفي فمن المؤكد أنها لا تعود..! "؛ بحسب ما قاله له أبوه ذات نهار حزين وهما عائدان من جنازة ابنة أخيه التي جرفت السيول منزلهم، ثم وجدت طافية على الماء بعد يومين؛ في حادثة مشهورة ظلت حديث الناس لزمن.

وتساءل في داخله وهو ينفض عن ثيابه آثار الطين الندي: " إن كان قد سمع نفسه متحدثاً بذلك بصوت مسموع أم أنه كان حديثاً داخلياً بينه وبين ذاته.. ".

كان منظر الأصيل أخاذاً، والعجوز يلاحظ ذلك وهو يسير ببطء يمكّنه من الاستمتاع بالمنظر كاملاً.. فلقد كان يشعر بأنه إنسان يستحق أن يعيش حراً كما عاش أجداده فوق هذه الأرض، وليس لأحد الحق في استعباده. وهو مستعد لأن يدافع عن حقه في العيش الكريم بأشياء كثيرة وعزيزة حتى ولو كانت هذه الأشياء هي حياته وحياة أسرته!.. وعندما دارت بخلده فكرة التضحية وقف قليلاً في مكانه يتأمل النهر ثم تابع السير وهو ينظر إلى صقر قد فرد جناحيه في الأفق البعيد..

(٣)

كي يصل إلى بيته كان لابد من أن يسير في طريق منحن، ثم يسير بخط مستقيم مواز لخط الأسلاك الشائكة، ثم عليه أن يصعد ربوة صغيرة، وبعدها يمكنه أن يرى المباني القليلة المتناثرة للقرية عن بعد، حيث بيته الطيني ذو الجدران القصيرة نسبياً، والنافذة الخشبية الوحيدة..

في أثناء عبوره الطريق الترابي المحاذي للأسلاك الشائكة تذكر أغنية قديمة لشاعر مهاجر، حيث روى له أبوه قصة شاعر باكستاني شاب اشتهر بين السكان المحليين باسم "أكرم شاه"، ولا يعلم أحد منهم إن كان هذا هو اسمه الحقيقي أم أنها مجرد تسمية أطلقت عليه بسبب نبل ملامحه ووسامته التي تظهر برغم آثار الحزن والسفر المتواصل.. لكن بعض الروايات تؤكد بأنه كان الابن الثاني لأحد أمراء الشمال الذين ينتسبون إلى بعض ملوك المغول؛ وقد قُتل أخوه خلال معركة بطولية سببتها حرب قبلية طويلة. وبعد مقتل أخيه أخذ يتنقل من مكان لآخر، ومن قرية إلى أخرى ليروي قصة فقد أخيه في قصائد مؤثرة؛ كان يغنيها بصوت حزين يطرب له الرعاة والمزارعون، وربما مشى وراءه بعضهم طلباً للمزيد من ألحانه الشجية التي كان يُعاد غناؤها في مناسبات أخرى ويرددها الكثير من أهالي القرى في المنطقة..

ولأشهر ظل الشاعر يجلس كل يوم على الضفة الجنوبية للنهر حاملاً معه ربابة مصنوعة من الجلد قد ربطها بقطعة طويلة من القماش تمتد على صدره حتى كتفه الأيسر، وكان يقبض على ربابته بيده اليمنى وكأنه يخشى أن تفلت منه ألحانه وقصائده إن هو تركها!. بل إنه ربما نام وهو يحتضنها في ظلال الأشجار.. وظل يغني في مثل هذا الوقت من كل عام أبياتاً حزينة تجتذب إليها بعض سكان القرى المجاورة الذين يظلون يستمعون إليه صامتين، ولعلهم كانوا يبكون من خلال كلماته أحبتهم الذين فقدوهم ثم لم يجدوا وقتاً كافياً للبكاء عليهم!.

وكان بعضهم يبقى حتى تختفي ألحان الغناء الحزين؛ ولا يبقى في الأفق سوى صوت جريان المياه الهادئ، ويعم المكان الظلام والسكون..

روى لـ"سليم" والده بعض أبيات قصائد الشاعر المهاجر، حيث كان – في إحدى القصائد – يشبّه الأصيل بلون الدم النازف من الجسد الملقى على الأرض!. ويقول في بعض أبياته الأخرى: "بأن مياه النهر العابرة في صمت ليست سوى دموع الجبال التي بكت حزناً على فقد أخيه..!".

(٤)

دفع الباب الخشبي برفق ومشى خطوات داخل المنزل نصف المظلم، ثم استرخى على مقعد مهترئ صنع من خشب الجوز؛ وضع فوقه أسفنج التصق عند مكان الجلوس بخشب المقعد، وقد غطى الإسفنج قماش بلون أزرق رسمت فيه طيور حمراء وصفراء باهتة؛ من النوع العتيق الذي لم يعد يصنع في مصانع النسيج المحلية.

تنهد ببطء وبصوت حاول ألا يكون مسموعاً، فخرجت في تلك الأثناء من الداخل ابنته الكبرى "شاجينا" وتبعتها أختاها اللتان تصغرانها بأعوام.. كان اسم الوسطى "شيرينا" والصغرى "عائشة"، وقد كان هو اسم والدتهم التي توفيت منذ أربعة عشر عاماً.

استقبلت الفتيات والدهن الذي بدا منهكاً من أثر المشي المتواصل، وقبلت "شاجينا" يده ثم أحضرت له كوباً من الماء وجلست إلى جواره، وجلست الأخريان في مقابله، فسألهن – كعادته كل يوم – إن كان أحد ما قد طرق الباب في أثناء غيابه.. وعندما أجبن بالنفي تنهد بارتياح، وأخبرته "عائشة" دون اهتمام بأن بعض سكان الحي طرقوا الباب بعد رحيله مباشرة وسألوا إن كان أبوهن قد ترك شيئاً من خبز البارحة؟ فأجاب العجوز ابنته وهو جالس على المقعد بالنفي مكتفياً بهز رأسه؛ وكأنه كان موجوداً حينها.. وكانت هي الإجابة نفسها التي

أجابتهم بها ابنته. ولم تشعر "شاجينا" بأي حرج من عدم إخبارها لوالدها بأن هناك من يسأل عن الخبز، فقد كان هذا حدثاً شبه يومي؛ ويعد طبيعياً لأي أسرة في تلك المنطقة يعمل أبوها خبازاً.

* * *

(٥)

كان "محمد سليم" يمتلك المخبز الوحيد في تلك الجهة من البلدة حيث ورثه عن والده.. المخبز كان صغيرا، ولكنه يغطي جزءاً كبيراً من احتياج الحي الذي يقع فيه ضمن البلدة الصغيرة القابعة بين الجبال. ولم يكن الأهالي يفضلون الذهاب للمخبز الحكومي، فهم لا يطمئنون إلى الأيدي غير الآمنة في صنع طعامهم. أما "سليم" فقد كان واحداً منهم يعرفونه عن قرب.

تم تجهيز المخبز داخل غرفة صغيرة في جانب من البيت الطيني القديم، حيث وضع في وسط الغرفة تنور متوسط الحجم بني من مادة فخارية، في أسفله مخزن للفحم، وجدرانه من الداخل ملساء.. وفي أعلى التنور فتحة ضيقة لإدخال العجين، وبواسطة قطعة طويلة من الحديد يستخرج الخبز الساخن من داخله.. وتقع في أعلى الغرفة الصغيرة فتحة لدخول الهواء النقي وخروج الهواء المحترق. وللغرفة بابان خشبيان، أحدهما خارجي يدخل منه السكان لشراء الخبز، والآخر يؤدي إلى المنزل.

لم يكن "سليم" تاجراً محترفاً بقدر ما كان رب أسرة يعمل على كسب القوت لأفراد أسرته. وقد وجد في تلك المهنة شيئاً من هذا وذاك.. وهو لا يطمح إلى المزيد، ولكنه يخاف كثيراً من المستقبل..

* * *

(٦)

بعد أن استرخى على المقعد لبعض الوقت، قام العجوز إلى غرفة المخبز الصغيرة ليجهز بعضاً من مستلزمات عمل الغد. إذ يتوجب عليه أن يصحو مبكراً، ثم يعد كمية وافرة من العجين ليكون مستعداً لاستقبال رواد المخبز من أهالي البلدة. كان كل شيء يبدو على ما يرام فيما عدا هذه الفئران التي تتسلل باستمرار وتعبث ببقايا الخبز التي يمكن بيعها فيما بعد، ثم هذا القلق الذي يسيطر على تفكيره.. ولكنه – في جميع الأحوال – مؤمن بالله؛ اكتسب إيمانه ومبادئه من خلال ما تعلمه في أثناء جلوسه في المسجد أيام طفولته إلى شيخ ضرير اسمه "موفق حضرت"، كان يعلم الناس شيئا من القرآن والحديث وبعضا من الأحكام والمبادئ المتعلقة بشؤون الحياة..ولم تكن تلك المبادئ التي تعلمها لتغيب عنه الآن، فقد فهم من أمور الحياة ما فيه الكفاية.. فالصبر أحد الواجبات المهمة، والقضاء والقدر شيئان يجب التسليم بهما. وهذا كاف إلى حد كبير..

عاد بعد مدة قصيرة إلى الداخل وكانت "شاجينا" قد ادخرت له بعض الطعام المكوَّن من الخبز والعسل، فتناول عشاءه فيما كانت بناته يجلسن قريباً منه، ثم قام بصمت وذهب إلى فراشه بعد أن تأكد من إغلاق باب المنزل جيداً..

لم يكن يدري بالضبط عن السبب الحقيقي وراء ثوران مشاعره؛ فقد كان متوترا ولم يستطع النوم بالرغم من محاولاته المتكررة بلا فائدة. وأعاد ترديد بعض الأذكار التي حفظها منذ الصغر لدى الشيخ "موفق"، ولكن النوم كان صعب المنال..

استدار ببطء واتكأ على يده اليمنى ثم جلس في فراشه البالي، وأخرج ساعته من جيبه ونظر إليها.. كانت تشير إلى منتصف الليل، فلقد ذهب جزء كبير من الوقت وهو يتقلب في فراشه. وأعاد ساعته إلى جيبه واتكأ على جنبه الأيمن مرة أخرى وسرح بفكره بعيداً إلى النهر والحقول الخضراء والأفق الممتد والأصيل النازف حمرة، وردد مع الشاعر المجهول بعض أبياته وهو خائر القوى قبل أن يغيب في سبات متقطع بعد كثير من الجهد المضني.

استيقظ وهو يشعر بالإرهاق. واكتشف بأنه قد نام وهو متكئ على يده، ولم يصدق بأنه قد نام إلا بعد أن لاحظ خيوط الشمس الأولى تدخل عبر النافذة.. حتى إنه لم يسمع ديك جاره الذي تعود أن يصيح قبل الفجر، وبدت على تجاعيد وجهه آثار ليلته الماضية التي لم تخل من كوابيس مزعجة لا يذكر تفاصيلها، ولكنه يذكر بأنه عاشها في ليلته تلك..

* * *

(٧)

عندما فتح باب المخبز اندفع إلى داخل الغرفة طابور قصير من الأهالي كانوا ينتظرون الخبز في الخارج. كانوا ثلاثة أطفال وامرأة ورجل عجوز. دخلوا صامتين ولم يسأله أحد منهم عن سبب تأخره في فتح المخبز على غير عادته؛ فيما عدا ابتسامة سريعة ذات مغزى من العجوز الذي وقف أولاً.. وأدرك "سليم" بأنه قد تأخر اليوم بعض الشيء فهز رأسه رداً على ابتسامة الرجل ثم انهمك في ترتيب العجين على طاولة متوسطة في أقصى الغرفة بعد أن قام بإشعال الموقد الغازي في داخل التنور..

رسمت شمس الصباح المباشرة في ذلك الوقت من شهر "يوليو" مستطيلاً مضيئاً فوق الجدار المواجه للباب الخارجي، بالإضافة إلى مساحات صغيرة من الضوء على أرض الغرفة، فاتجه الجميع بهدوء إلى الجهة المقابلة بعيداً عن حرارة الشمس، في حين بقي مستطيل الضوء في مكانه؛ آخذاً في الاتساع دون أن يشعر به أحد.

كل شيء هنا يدور بصمت وترقب سوى بعض الأحاديث العابرة والتحيات التي يلقيها السكان وهم ذاهبون إلى الحقول. إلا أن وضع البلدة لم يكن طبيعياً ذلك اليوم تماماً، فقد لاحظ بعض الأهالي سيارة عسكرية تجوب المنطقة، حيث لم يكن منظر الغرباء في القرية مألوفاً؛ ولكن الجنود الحكوميين كانوا

يطوفون من حين لآخر في القرى الصغيرة إما بحثاً عن الثوار، وإما لضمان سير الأمور على ما يرام..

فيما كان العجوز الواقف أولاً يتناول أرغفة الخبز الخاصة به، كان يهمس إلى "سليم" قائلاً:

– " لقد رأيت سيارة عسكرية تجوب المنطقة بالأمس.. وقد شاهدتها اليوم قبل الفجر بقليل.."

فرفع رأسه عن التنور وعيناه نصف مغمضتين من أثر اللهب والدخان المتصاعد من الموقد محاولاً أن يستفهم من العجوز؛ ولكنه كان قد رحل وحلت مكانه المرأة التي مدت يدها ببعض النقود فتناولها ووضعها في درج صغير بالأسفل وعاد إلى طاولة العجين مرة أخرى، وقد ساورت قلبه شكوك مؤلمة.

* * *

(٨)

لم يكن يعلم سبباً واضحاً لتخوفه هذه المرة من جولات الجنود حول القرية، ولكنه أرجع سبب خوفه ذلك إلى القلق والأحلام المزعجة اللذين داهماه ليلة البارحة، فعاد وانهمك في عمله مرة أخرى.

بعد أن ناول المرأة أرغفة الخبز، أخذ في تجهيز عجين جديد للصبي الواقف خلفها، والذي تدل ملامحه الجميلة وبشرته البيضاء الشاحبة على أنه من أسرة فقيرة. نظر إليه "سليم" بودٍّ، وعندما التقت نظراتهما ابتسم الصغير بوجهه الطفولي فابتسم العجوز لأول مرة منذ يومين وهو يناوله نصيبه من أرغفة الخبز، فقد كان الأخ الأصغر لأخوين قتلا في أثناء قيامهما بعمليات فدائية ضد جنود الاحتلال خلال العام الماضي. وقد أخبره الصبي عندما جاء ليشتري منه الخبز ذات مرة أنه يحب أخويه كثيراً، وأنه بكى بشدة عندما قتلا، وبأنه أيضاً يريد القتال ولكن أمه تقول عنه " إنه ما يزال صغيراً.. ". وضحك العجوز حينما أخبره الصبي بأنه قد اختلس ثلاث رصاصات من بندقية والده حتى يستخدمها في القتال عندما يكبر..!

أنهى العجوز عمله قبل الظهر بوقت قصير وعاد إلى منزله في هذه المرة وهو متعب وفي حاجة إلى النوم، واكتفى بإغلاق الباب

الخارجي للمخبز، ودخل إلى المنزل مباشرة تاركاً الباب الداخلي مفتوحاً.. وبمجرد أن استلقى على فراشه استغرق في نوم عميق. وكانت "شاجينا" تراقب أباها وهو يدخل إلى المنزل فأحست بالشفقة تجاهه، وخاصة بعد أن اعتذر لها عن الطعام الذي قدمته له.

بعد ساعة من النوم المتواصل استيقظ العجوز مذعوراً على صراخ ابنته الصغرى وهي تقول:

– " الجنود يداهمون البيوت!.. أرجوك، فلنرحل يا أبت..!"

كانت الأخريان تبكيان؛ وكان العجوز يرتجف في فراشه من هول المفاجأة، ولم يستطع أن يتكلم، ولكنه استجمع قواه وخرج من المنزل متجهاً إلى باب المخبز الخارجي فأغلقه بالقفل ثم قام بإغلاق باب المنزل. وصادف في هذه الأثناء أن التقى بأحد الفلاحين القادمين من الحقول في أثناء مروره فسأله "سليم" بانزعاج:

– " عن أي شيء يبحثون هذه المرة..؟! "

فأجاب الفلاح وقد تغير لونه وبدت عليه آثار الخوف التي أخفاها بشجاعة مصطنعة:

– " لا تخف! يبدو أنها مجرد جولة تفتيشية لا أكثر..!"

فقال العجوز وهو ينظر فيما حوله بحذر دون أن يركز بصره على شيء محدد:

– "عم يفتشون؟! ليس لدينا سوى طعامنا وطعام أطفالنا!"..

فاقترب الفلاح من العجوز وقال وكأنه يفضي له بسر خطير!:

– " إنهم يخشون من المقاومة، وهم يبحثون عن الشباب المختبئ هنا وهناك.."

وانخفضت نبرة صوته قليلاً وهو يضيف:

– " وقد سمعت في الراديو بإذني هذه (وارتفعت يده إلى مستوى كتفه باتجاه أذنه اليمنى) – قبل أسبوعين – أن أحد المواطنين قد أطلق الرصاص على مستودع للأسلحة تابع للجيش ثم لاذ بالفرار. ولحسن الحظ؛ فإن أحداً لم يصب بأذى..!!"

وتابع كلامه فيما كان "سليم" يلقي نظرة سريعة على المسحاة التي وضعها الفلاح على كتفه ممسكاً بها بيده اليسرى وقد بدى على جزئها الحديدي إلى منتصفه آثار طين حديث:

– ".. ولحسن الحظ؛ فقد كان من قرية بعيدة!.. لأنني سمعت بأنهم داهموا القرية بكاملها، واعتقلوا جميع الشبان فيها.."

وأنزل عن كتفه المسحاة واضعاً جزءها الحديدي بشكل متواز مع الأرض وهو يقول:

– " هل تسمعني أيها الشيخ؟!"

فهز الخباز رأسه موافقاً وقال بحزن:

– " ولكني أعرف ماذا يريدون..!"

فقال الفلاح بصوت خفيض على الرغم من المسافة القصيرة بينهما:

– "عن أي شيء تتحدث؟!"

رد الشيخ بصوت واثق:

– " أقول إنهم أوغاد، معتدون!"

فقال الفلاح وهو يحاول أن ينهي الحوار بسرعة:

– " لا تلق بنفسك في قبضتهم أيها العجوز، فأنت تعرف أنهم لا يرحمون أحداً.."

افترق الاثنان دون كلمة تدل على الوداع، وعاد العجوز إلى باب منزله، ووقف يراقب تحركات الجنود من بعيد..

* * *

(٩)

كانت القوات الحكومية تقوم بجولات تفتيشية، وبتمشيط للمناطق من حين لآخر، وخاصة بعد العمليات الانتحارية التي يقوم بها الشبان المنتمون لحركة المقاومة الشعبية. وفي كثير من الأحيان كانت القوات الهندية تقوم بأعمال تعسفية ضد الأهالي لإرغامهم على الخضوع لحكومة الاحتلال.. كما أنه كان يسمح للجنود بدخول المنازل تحت تهديد السلاح بحجة التفتيش في أي وقت.

قبل العصر بقليل وصلت سيارة جيب أخرى تحمل أربعة من الجنود معهم أسلحة خفيفة، حيث بدؤوا بالتفتيش..

كانوا يدخلون كل بيت ويخرجون منه أصحابه، ثم يقلبون كل شيء فيه رأساً على عقب. والويل لمن يعثرون لديه على سلاح مهما كان نوعه! ونادراً ما كان أحد القرويين يمتلك سلاحاً. وفي حال امتلاك أحدهم للسلاح فإنه يقوم بإخفائه في مكان بعيد حتى لا يتمكن أحد من العثور عليه، وربما أخفاه في الجبال المحيطة، أو داخل أحد الكهوف المظلمة القريبة..

دخلوا أغلب بيوت ذلك الجزء من البلدة، وعندما حاول أحد السكان واسمه "بلال" أن يرفض السماح لهم بدخول منزله بحجة أن زوجته مريضة بالداخل وعلى وشك الولادة.. عندها هددوه

بإطلاق الرصاص عليه فتراجع وسمح لهم بدخول المنزل، وبعد أن أنهوا عملية التفتيش، قام أحد الجنود بضربه بعقب البندقية على رأسه فسقط على الأرض.. وكان طفله الصغير يراقب المشهد بخوف وصمت.

كان العجوز يقف أمام الباب الخشبي لمنزله عندما وصل إليه الدور، وكانت الجولة توشك على الانتهاء، إذ إن منزله هو آخر المنازل من الجهة الشرقية للقرية، وهذا يعني أنهم سيعودون بعد تفتيشه من حيث أتوا.. لذا فقد ذهبت إحدى العربتين، وبقيت عربة واحدة بها ثلاثة من الجنود. بعد أن أوكل إليهم قائد الجولة إنهاء عملية التفتيش والعودة إلى المعسكر قبل حلول الظلام.

* * *

(١٠)

وقفت سيارة الجيب الرملية اللون بمحاذاة المنزل، وترجل منها اثنان من الجنود وهما يشتمان السكان المحليين بصوت عال، وقال أحدهم وهو يضع رجله على الأرض نازلاً من السيارة:

– " إن الماعز أفضل منهم بأي حال..!"

فضحك الجندي الأعلى رتبة والذي كان بداخل السيارة..

حاول العجوز أن يبقى ثابتاً، رابط الجأش، وقد نجح في ذلك إلى حد لا بأس به..

– "لماذا لا تتحرك أيها العجوز (...)؟!"

قالها جندي من الذين خارج السيارة وهو يتجه ببطء ناحية المنزل.

فقال الشيخ بصوت متقطع وهو يراقب بندقية الجندي الآخر حيث وضعها على مقدمة السيارة:

– " وماذا تريدني أن أصنع؟!"

فقال الجندي بانفعال سببته حرارة الشمس المائلة إلى الغروب؛ وقد انعكس منها شعاع قوي على زجاج السيارة الأمامي:

– " يبدو أن هذا العجوز لن يدعنا نمضي بسهولة!.."

قال هذا وهو يتجه إلى باب المنزل. وما إن أنهى كلامه حتى ركل الباب بقدمه، فسقط الباب الخشبي محدثاً دوياً اختلط بصرخة انبعثت من الداخل، فقد ظنت الفتيات أن أباهن أصابه مكروه..

حاول العجوز أن يمنع الجنود من الدخول ولكنهم أبعدوه بحركة من يد أحدهم وهو ينظر في عيني العجوز محذراً، حيث مد يده خلال الجزء الذي يفصل العجوز عن الباب قبل أن يدخلوا إلى داخل المنزل.. حيث فتشوا الغرف جميعاً، كما قاموا بتفتيش غرفة المخبز!، وفي طريقهم إلى الخارج أخذوا بعض أرغفة الخبز الرطبة..

كان العجوز قد تبعهم إلى الداخل وأخذ يراقب تحركاتهم بصمت حزين، وكانت الفتيات قد تكومن على بعضهن في زاوية من زوايا إحدى الغرف. وعندما رأوا أباهن هرعن إليه وتعلقت عائشة بيده وهي تبكي، وكانت "شاجينا" هادئة متماسكة فيما كانت "شيرينا" تبكي بشكل متقطع..

لم يكن الجنود يتوقعون أن في البيت نساءً.. إذ إن أحدهم سأل العجوز بلطف مصطنع:

– " هل هؤلاء الجميلات بناتك؟!"

فأجابه العجوز بحدة واضحة:

– " وماذا تريد منهن؟!"

لم يرد عليه الجندي بل بادره بسؤال آخر وهو ينظر إلى إحدى قدميه محاولاً أن يجعلها تستقر فوق طاولة صغيرة:

– " ما أسماؤهن؟!"

رد العجوز بالحدة السابقة نفسها، وبنفس متلاحق:

– " هذا شيء لا يهمك.. وما دمتم لم تعثروا على أسلحة فاخرجوا الآن..!"

ضحك الجندي الشاب ضحكة متواصلة، وتبادل مع الجنديين الآخرين نظرات خفية ثم وجه كلامه إلى "سليم" قائلاً:

– " إنك عجوز شجاع.. أليس كذلك؟!"

والتفت إلى زميليه وضحك أيضاً، ثم قال:

– "حسناً!.. سنغادر.. إلى اللقاء!"

قالها وهو ينظر إلى الفتيات اللائي كن قد غطين وجوههن بأيديهن من هول المفاجأة..

خرج الجنود وهم يتبادلون أحاديث هامسة وركبوا سيارتهم التي تحركت ببطء قبل أن تسرع مخلفة وراءها عاصفة صغيرة من الغبار..

تابع العجوز هيجان الغبار بنظرات صامتة، وبعد أن اختفت العربة عاد يحاول إصلاح باب المنزل، ولم يفلح سوى في وضعه بشكل قابل للسقوط إن تعرض لهزة قوية. وكان في أثناء ذلك لا

يكف عن سب الجنود وشتمهم بعبارات سيئة وبصوت خافت وكأنه يتحدث إلى شخص قريب، ولم يكن يسمع منه سوى كلمات قليلة: "جبناء! خونة!!".. وكان منفعلاً لدرجة أنه لم يسمح لأحد حتى بمساعدته في تعديل الباب المتهاوي..

* * *

(١١)

لم يكن الرجل العجوز ساذجاً إلى الحد الذي يجعله لا يفهم كلمات الجنود ونظراتهم الجريئة إلى بناته، ومعنى أسئلة الجندي – الذي وصفه فيما بعد بأنه "حقيراً" – .. كلا! إنه يفهم كل ذلك، وهذا ما كان يخشاه منذ زمن.. ومع أنه لم يعرف السبب الحقيقي لتلك الدموع التي سالت على وجنتيه عند شاطئ النهر يوم أمس.. إلا أنه الآن يعي كل شيء، فهو قلق وخائف على عفاف بناته من أن يدنسه أولئك الجنود.

وهاهو الآن الرجل الصبور ينتحب كطفل أضاعه والداه! لا لشيء ولكن لأنه شعر بأنه سوف يُسلب أعز ما يملكه، بل وأثمن ما يمكنه الدفاع عنه.. حتى بناته، كن يبكين إلى جانبه بعد أن فشلت محاولاتهن لتهدئته، ولم يكنَّ يعلمن لماذا كان والدهن يبكي بهذا الشكل المؤثر.. هو وحده الذي كان يعلم ذلك.

لقد أدرك من كلام الجنود أنهم سيعودون لمنزله في وقت قريب.. فها هي إذاً المصيبة على وشك أن تقع..!

وقف الرجل العجوز يناجي ربه بصوت خافت وهو يبكي:

– " يا إلهي! احفظ هؤلاء اليتامى.. إنهم أبناؤك.. وأنا مسكين وضعيف، ياإلهي!"..

بعد قليل انتبه إلى أن بناته قد دخلن إلى غرفتهن، وأنه بقي وحده، فقام وذهب إلى فراشه وجلس.. وحين بدأ المطر بالنزول، بدا خائفاً من عودتهم.. إنه يفهم سلوكهم.. وفيما لو عادوا هذا المساء، فستكون كارثة..

عاد بذاكرته قليلاً إلى الوراء وتذكر قصة حزينة لفتاة كشميرية ماتت منذ زمن.. لقد قتلت نفسها قبل أن يقبض عليها المعتدون. ومع أن القصة حدثت لفتاة من قرية معزولة إلا أنها انتشرت في جميع أرجاء البلاد..

كانت " زينب " – كما تقول الرواية – فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها، وقد خافت على عفافها من أن يدنسه المحتلون بعد أن داهموا قريتها، وقتلوا أحد الرجال، وأسروا بعضاً من الرجال والنساء. فقامت بكتابة رسالة مؤثرة تصف فيه ما حدث لأبناء القرية الوادعة، وتدعو أصحاب الكرامة في بلدها والبلدان المجاورة لمساعدتهم في محنتهم تلك.. ثم قامت بربط الرسالة في معصمها وألقت بنفسها في النهر هرباً من المعتدين الذين كانوا يطاردونها بعد فرارها من منزل أسرتها باتجاه الجبال العالية التي تمر خلالها مصبات النهر الكبير.. وبعد مدة وصلت جثتها إلى إحدى القرى الواقعة على الجانب الآخر من النهر، وقد قرأت رسالتها في جميع النواحي، بل إنها وصلت إلى البلدان المجاورة، ونشرت آنذاك في الصحف، وقرأ أجزاء منها خطيب أحد المساجد المشهورة في "الباكستان"..

حاول أن يسترجع ما كتبته الفتاة، ولكن ذاكرته كانت مجهدة فلم تسعفه بشيء كثير، غير أنه تذكر أنه يحتفظ بنسخة قديمة من الصحيفة التي قامت بنشر القصة آنذاك، فقام يفتش عنها في إحدى الغرف المظلمة. ولما عاد إلى مكانه وجد بناته قد جلسن يراقبنه بصمت ظناً منهن بأنه يعاني من خطب ما..

نظر إليهن بعينين مجهدتين ثم قرب الصحيفة من عينيه وبدأ يقرأ بصوت مسموع:

- ".. أكتب إليكم رسالتي هذه.. وأضعها في معصمي كأجمل سوار عرفته في حياتي.. إنني أهدي هذا السوار الجميل إلى كل واحد منكم، من أختكم التي اختارت الموت الكريم على حياة البؤس والعار...".

* * *

(١٢)

حل الظلام سريعاً في تلك الليلة، واحتل الليل الأفق بعد نهار بدأت قسوته منذ خيوط الفجر الأولى.. كان المطر ما يزال مستمراً؛ يسمع صوت نزوله وكأنه طرقات متلاحقة على الأبواب والنوافذ، وقد بدا المنزل مظلماً إلى حد كبير، وشعر العجوز بجسده يرتجف مع حلول الظلام، فخرج من غرفته متهالكاً وجمع حوله الفتيات ولكن قد هدأن قليلاً ولم يعدن يبكين، واقتربت عائشة ذات الأربعة عشر خريفاً وأسندت رأسها إلى صدر أبيها صامتة، أما الأخريان فكانتا تراقبان المشهد في وجوم...

بدأ يفكر بسرعة فهو يعلم ماذا سيفعل الجنود لو عادوا تحت جنح الظلام.. وربما قتلوه لو أبدى نوعاً من المقاومة، وبعدها يمكنهم افتعال أي مبرر لقتله،وكان من الصعب عليه أن يرحل الآن، فهو لا يملك عدة الرحيل، ثم إلى أين؟! والجنود منتشرون في جميع الطرق المؤدية إلى العاصمة.. فكّر في إخفائهن لدى أحد السكان هنا، ولكنه اعتقد بأن النتيجة واحدة فلسوف يبحث عنهم الخبثاء في كل بيت من بيوت القرية الصغيرة..

كانت عيناه تدوران في أنحاء الغرفة التي لم يكن يرى فيها سوى الوجوه الحزينة لفتياته الصغيرات، وكانت عيناه ترمقهن بنظرات حنونة وأخرى قاسية لا يجد لها تفسيراً..!

لم يستطع أن يواري عنهن عينيه المغمورتين بالدموع وهو يفكر بتنفيذ فكرته الجريئة التي ولدت لتوها ثم أخذت تكبر وتكبر؛ مثل أشعة الشمس في مساحات الأرض الشاسعة..

كانت فكرته قاسية فعلاً.. ولكنه اعتقد بأنها الحل الوحيد.. وقد سمع أباه مرة يقول: " إن موت الإنسان خير له من بقائه حياً وقد سلبت كرامته، فهو يموت في الحالة الثانية مرات كثيرة..".

ظهرت أمام عينيه صورة زوجته الراحلة فرفع إليها عينيه برجاء ورأى من بين دموعه وجهها يفيض جمالاً وهي تنظر إليه وكأنها تكرر ما قالته له قبل موتها بلحظات: ".. إنهن أمانة لديك يا "سليم".. هؤلاء بناتي أمانة عندك..". ومنذ أن غطى بيديه عينيها في ذلك اليوم؛ وتلك الكلمات لا تفارق خياله حتى وهو في عمله أو على فراشه.

كانت الأفكار والخيالات تعبثان بعقل العجوز، ولكنه كان مصمماً على التضحية، حتى ولو تطلب الأمر أن يضحي بحياة بناته اللاتي أحبهن أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا.. ولكنه من أجل حبه لهن سيفعل ذلك. لم يكن يعلم لماذا صمم على هذه الفكرة القاسية بهذه السرعة لكنه ثمن الكرامة على أي حال..

– "حسناً! لقد صممت وانتهى الأمر.. الحياة غالية ولكن الكرامة أغلى منها بكثير، وأنا لا أفعل شيئاً أكثر من أنني أسعى لتطبيق هذه الحقيقة..". قال ذلك في نفسه وهو يبعد عينيه عن الفتيات وينظر في اتجاه آخر.

قام من مكانه وتحرك بضع خطوات نحو باب منزله، في حين كان المطر يهطل بشدة، ففتح الباب وتقدم إلى الخارج قليلاً تاركا جسده يغتسل بماء المطر، واستطاع سمعه أن يميز أصوات عربات تجوب الأفق البعيد؛ كان يرجح أنها العربات ذاتها التي داهمت القرية اليوم، فازداد وجهه شحوباً وارتعشت يداه بفعل الخوف والبرد.

* * *

(١٣)

عاد إلى غرفته يجر خطاه بصعوبة أحضر الصحيفة التي فيها رسالة "زينب"، وجلس بين بناته اللاتي كن ينتظرنه بالداخل وهن يشعرن بأن أباهن ليس على ما يرام، وبدأن يشعرن بالخوف وهم ينظرون إلى ملابسه المبللة ويديه المرتعشتين تقلبان الصحيفة المهترئة.

أخيراً تكلمت "شاجينا" قائلة:

– " لماذا تبدو مضطرباً هكذا يا أبي..؟!"

فرد عليها بعد أن تنفس بعمق وعيناه لا تفارقان الأوراق:

– "لا شيء!"..

فتح الصحيفة وألقى بالصفحات الأخرى؛ ممسكاً بالصفحة التي بها الرسالة وقال بصوت عميق خيل إلى الفتيات بأنه ليس صوته الحقيقي:

– " إن عفافكن أثمن بكثير من حياتكن، هل تفهمن؟!.. هكذا كتب علينا الذل والاستعباد.. ولكننا يجب ألا نستسلم..".

وأضاف وعلى شفتيه ابتسامة حزينة:

– " لن تمتن أيتها الصغيرات! ستبقين أحياء..صدقوني..!".

ارتفع صوته وهو يتلو أجزاء من الرسالة وكأنه يلقي خطبة في محفل صغير:

– ".. فكرت في أني لو لم أقدم على قتل نفسي فإن العمر سيمتد بي؛ ولكن هيهات..! لن أعيش إلا ما كُتب لي، وإن عشت فسأحمل بين جنبيّ عاراً لا ذنب لي فيه..".

قرأ العجوز الرسالة مرة ثانية بصوت أكثر حزناً من ذي قبل، ثم ضم الأوراق وقبلها، وبكت "شيرينا" حين قرأ والدها آخر عبارة فيها: " اللهم ارحمني. أختكم الجريحة "..

ظل واقفاً لبعض الوقت، ثم انحنى وقبل رأس كل واحدة من بناته، ثم سار إلى خارج الغرفة وأشار لهن أن يسرن خلفه.. لقد كان يمشي بثبات، وكن ينظرن إليه بذهول ودهشة.

كان الليل قد أسدل ستاره تماماً عندما أمر العجوز فتياته بالصمت واضعا سبابته اليمنى على شفتيه؛ ثم أمرهن بالدخول إلى تنور الخبز..!.. كان الفرن باردا وكن يبكين بصمت، فقام وأحضر بسرعة ونشاط بعض الحطب وألقاه في الداخل، ثم سكب بعضا من زيت الاشتعال؛ وأطل عليهن من فتحة التنور وهو يقول:

– " لن تمتن..! صدقنني..!، ستحيين إلى الأبد! ".

كان الظلام يلف الفتيات في داخل الفرن وهن غير متأكدات من مصيرهن.. معتقدات بأن أباهن يعمل على إخفائهن عن أعين الجنود؛ لذا فقد صمتن في توجس، إلا أن "عائشة" ظلت تبكي بكاء مكتوماً بعد أن غطى أبوها فتحة الفرن. وتحول بكاؤها إلى نشيج مسموع فيما كان العجوز يضع فوق الغطاء حجراً ثقيلاً كان يستخدمه للصعود عليه عند تنظيف جدران المخبز من الأعلى..

انتظر العجوز زوال تيار من الدموع الساخنة عصرت قلبه وهي تسيل على وجهه قبل أن يلقي بعود ثقاب مشتعل داخل الفرن ليتحول إلى كتلة من اللهب.. وكاد أن يسقط وهو يسمع صراخ الفتيات في الداخل، ثم أخذ يبكي واضعاً كلتا يديه على الحجر الثقيل في أعلى الفرن وكأنه لا يريد لهن أن يعدن إلى الحياة ثانية.!

* * *

(١٤)

في منتصف الليل وقفت سيارة عسكرية عند باب المنزل، ونزل منها أربعة جنود كان من بينهم قائد فرقة التفتيش التي مرت بالقرية ظهر أمس. وبعد أن شهروا أسلحتهم دفعوا الباب الخشبي ودخلوا إلى المنزل مباشرة.. في حين اكتفى بعض سكان الحي بالنظر من النوافذ لمعرفة حقيقة ما يحدث..

فتش الجنود المنزل ولم يعثروا على أحد، واتجه اثنان منهم إلى غرفة المخبز الصغيرة فرأوا العجوز جالساً فوق التنور، ممسكاً بكلتا يديه الحجر الذي فوق غطاء الفرن؛ يقبله ويبكي!! ويقول بصوت حنون: " لا تمتن..أرجوكن..!"، وكان من الواضح للجنود بأن الرجل قد فقد عقله..

وعندما رأى الجنديين الآخرين يدخلان خلع العجوز سترته البالية ولوح بها في الهواء وهو يقول:

– ".. بناتي أحببن الموت! "شاجينا"! هل تريدين الموت يا حبيبتي؟!.."

اقترب منه أحدهم ويده ترتعش وهو قابض على سلاحه، وسأله عن بناته، فأجاب وكأنه يهمس إليهم: " أنتم لا تفهمون!.. إنهن هنا.. لا تزعجوهم أرجوكم!.. تعالوا واشتروا الخبز غداً..! ".

كان العجوز يهذي بكلمات كثيرة قبل أن يأمر قائد الفرقة أحد المساعدين بفتح الغطاء، فتقدم متردداً، وأزاح الحجر عن الغطاء أولاً وهو ينظر إلى العجوز بخوف. وعندما أزال غطاء الفرن امتلأ جو الغرفة برائحة احتراق الأجساد الصغيرة.. وحين أشعل الجندي مصباحه..صرخ من هول المفاجأة، فقد كان بالداخل ثلاث جثث محترقة بالكامل..

أشرق فجر اليوم التالي على القرية كئيباً. وعندما بدأت الشمس ترسل أشعتها الذهبية لم يكن "محمد سليم" موجوداً..

قال شاهد عيان فيما بعد – وهو يحكي القصة لأهالي قرية أخرى – :".. إنه رأى جثة الخباز العجوز عند النهر الكبير، وقد غرق جسده في الماء وبقي رأسه على الشاطئ، وعلى وجهه آثار حزن، وفي عينيه آثار بكاء..

وقال شاهد آخر:" إنه سمع صوت غناء "أكرم شاه " مرة أخرى؛ بالقرب من النهر بعد أن اختفى منذ زمن حتى ظن الناس بأنه قد مات؛ وكاد بعضهم أن ينسوه.. قال إنه رآه من جديد، بالقرب من جثة العجوز، وسمعه يردد أغنية باكية؛ تحكي عن الموت عند الأصيل، وعن الحقول الحزينة.. وأنين الرياح.. ودموع الأنهار..

* * *

السيرة الأدبية للمؤلف

المشاركات والجوائز الأدبية:

- الجائزة الثانية في مسابقة راشد بن حميد للثقافة والعلوم في مجال القصة القصيرة لعام ١٩٩٣م في دولة الإمارات العربية المتحدة.
- الجائزة الأولى في مسابقة راشد بن حميد للثقافة والعلوم في مجال الشعر لعام ١٩٩١م في دولة الإمارات العربية المتحدة.
- الجائزة الأولى في مسابقة نادي أبها الثقافي في مجال الشعر لعام ١٤١٢هـ.
- الجائزة الأولى في مسابقة نادي المدينة المنورة الثقافي في مجال الشعر لعام ١٤١٢هـ.
- الجائزة الثالثة في مسابقة نادي الطائف الثقافي الخامسة عشرة في مجال الشعر.
- الجائزة الثالثة في مسابقة التأليف المسرحي بمكاتب الرئاسة العامة لرعاية الشباب لعام ١٤١٦هـ.
- المشاركة في أمسيات أدبية ومناسبات ثقافية.

العنوان: ص.ب ١٥٣٥٣٠ الرياض ١١٧٢٨

arablife@gmail.com